# أريج الجذور

رواية

رامى عباس

ليلينك للنشر والتوزيع

أريج الجذور
رامى عباس
رقم الايداع / 21092 / 2012
ط1 يناير 2013
الترقيم الدولى/ 978 - 977 - 5311 - 18 -4
غلاف / رضوى عادل
مراجعة لغوية أ / أحمد عبد العظيم
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد
المراسلات :17 ش محمد أمين شهيب
مصطفى كامل إسكندرية
من ش أبوقير- أمام كلية رياض أطفال
ت : 035232044
موبايل : 01206301212
lilettepublishing@gmail.com

هيئة تحرير الدار

د/ محمد داوود
محمد الشماع
ميسرة صلاح الدين

إلى كل الذين عبروا لحظات يتحول عندها التاريخ

ولكل الذين أهدونا أي متعة

وإن جلبت معها بعض الحسرات

لأبي عندما تشتاق الروح للدفء

ولأمي قدس الأقداس

ولـ«آلاء» وقت تضيق الدنيا

إليكم هذه الأوراق

# الشعب المختار لم يحتفل بي

زوجته في الغياب، ولا يدري إن كانت غضبى، أو في زيارة لأمها قد تطول،خرج ولا يعرف لأي جهة سيمضي، ربما للماضي، هنا تحطمت قصة حب، وهناك انفرط عقد صداقات شتى، وفي هذا المكان كان النزق عارمًا وللشباب فورة، يجب أن يمر بها المرء بنجاح. لم يكن محتاجًا لإحباطات إضافية، فآثر السلامة، ورجع محمومًا للبيت.

ارتبك كثيرًا كي يصنع مشروبًا ساخنًا يعيد له اتزانًا مفقودًا، ولج لغرفة،عُرِف إنها مُهمَلة، تقريبًا لا يدخلها سواه، في بدايات زواجه لم يجد الأثاث الذي يستطيع أن يضعه فيها، بها مكتبه القديم،وقت كان طالبًا متفوقًا، وكتبُه التي لم يعد يقرأها، وبعض الصور: الأبيض والأسود غالبًا، فيها حميمية هذه الأماكن التي دعته حالته لأن يذهب إليها؛كي يجتر ماضيًا لم يكن لينساه، لولا الحياة التي باتت تتنفس تعقيدات لانهائية.

راح يقلب في كل شيء، بدا كالذي يبحث عن شيء ما، ما هو؟ لا يعرف.. رسائل من أصدقاء أغراهم البحث عن لقمة عيش في بلاد الزيت، رسائل مُعطرة لا تخلو من عوارض مراهقة، شهاداته المدرسية، أرقام جلوسه في امتحانات نهاية العام، كشكول قديم بين مجموعة كتب، تمثل تراثًا لرجل مرَّ من هذه الحياة، كان أبوه الراحل يوصيه خيرًا بهذه الغرفة.

عاش فيها يتيمًا يمت بصلة قرابة لـ «رتيبة» التي كانت في مقام جدَّته استودع أباه كل تفاصيلها قبل أن يفارقهم في سفر طويل.

و حين عاد ذاك اليتيم شيخًا عجوزًا، متدثرًا بالوحدة، وعاجزًا وكسيحًا،يلتقي بهم متى عنَّ له الشوق للماضي، ومات منفردًا كما جاءها أول مرة، مات وهو شديد الشوق لأن يرى كل الذين حرمه القدر لقاؤهم في هذي الدنيا، آسفًا على كل ما كان .

نعم،يتذكر ذاك الاتصال منذ سنوات، قيل وقتها أمانات لرجل مات، أوصانا لأن نتركها لكم، لعل ابنه سيعود يومًا ويسأل عنها، لكَم ذكركم بالخير،جاءكم طفلا، وزاركم شيخًا سقيمًا عاجزًا، قاوم الإحباط بإرادة قوية لكن القدر دائمًا ما يقول كلمته الأخيرة.

دفعه الفضول لأن يقرأ ماذا كتب الكسيح، في هذه الوريقات، مازال يتذكره: عيناه الذاهلتان، صمته الحزين، جسده المشطور، شرد بعينيه للبعيد، نعم.. ربما انطباعات،تعليقات، عبارة موجزة حرَّضها موقف أو حديث عابر مع إنسان ما قد عبر من خلال الرحلة،ك ان مُسهبًا يحكي، وكأنه يكتب رسالة مؤجلة قد حان وقتها، لشخص يحسبه هو .

"بني إسرائيل وليس لي أن افتخر" لم يكن يفهم لِم كتب الرجل هذه العبارة نفث دخان سيجارته في جو الغرفة، وراح يسبح في سطوره، وذاكرته، التي بدت بوضوح جريحة.. كأهل الريف جميعًا،ممن يمتلكون مساحة لا بأس بها من الطين. هل هذا جزء من موروث الرجل الشرقي عندما يمتلك ؟ كان أبًا ولديه أولاد كُثر، وفى رحلة من رحلاته التجارية كتاجر للغلال، التقى بجدتي وتزوجها، وأنجب منها أبي، وماتت أثناء ولادته.. يبدو أن اليتم وراثي في هذه الأسرة، كبرَ اليتيم، وتعلق به أبوه وأفرط فى حبه، حتى جعل منه يوسف المحقود عليه أو يكاد، لكنهم تحولوا إلى بنى إسرائيل - حقا - بعد وفاته؛ كان

جميل المُحيا وخفيف الروح، استثمره في التجارة، وباقي الأولاد، في فلاحة الأرض وتسمين الماشية ، كبر الولد وكان طبيعيًا أن يتزوج، وفى تمازج غريب بين السعي لنسب مُشرف ، الحرص والرغبة من جدِّه لصناعة اتحاد كونفيدرالي مع القرى المجاورة لقريته، خطب لابنه المُقرب أمي

كانت جميلة جدًا، وأظن لو أنى كنت شابًا يافعًا، ولمحتها في جوار قريتنا لتزوجتها، ولكن القدر من قديم قد ختار أن تكون أمي ! سمعتُ أنه كان رجلا بحق، طيب في مواضع الطيبة، وخشنًا في مواضع الخشونة، التي تتطلب منه الوقوف بحزم للحفاظ على مال أبيه وتجارته، ولقد أحسن عشرتها، وكانت تفتخر أنها بطول السنوات الثلاث التي عاشتها معه قبل أن يختطفه الموت، لم تغضب منه ساعة، بعد عام من زواجهما، وفى ليلة اعتبرها والدي فاصلة، فلقد أبى القدر أن يتم خروجي إلى هذا العالم فى بدايات الربيع، فهبطتُ إلى المتاهة في الشتاء. سألت أمي بشغف عن ردَّة فعله حيالي، فتعلن أنه كان مبتهجًا

و يعتبرني بلغة التجار« استفتاح طيب » مع نهاية النهار ستحل المكاسب الطائلة.

بدا أنه ينتوى إنجاب دولة من الأولاد، ولكن القدر أصر بضراوة أن أكون مجرد استفتاح طيب وكفى.

كنت طفلاً فضوليًا، و دائمًا ما حرصت لأن أسأل أمي ذلك السؤال المُجهد والموجع .. كيف مات ؟ فترد: وكيف يموت الناس ؟!

إن الله يعطينا شيئًا، فإن أراد أن يأخذه؛ تحولنا إلى رمّة، وجب دفنها فى التراب.كانت تستخف بي، وخصوصًا أن عقلي صوَّر لي أن الصغار لا

يموتون، الله يأخذ الشيء الذي أودعه فينا من العجائز ..
أمي فلتعترفي لي،فأنا جد متفهم؛فشيخ الكُتاب كثيرًا ما يقول آيات من المصحف،تحكى أن ما حدث لأبى كان طبيعيًا .
تقول :ذهب للقاء أعمامك بعد وفاة جدِّك،ودار بينهم نقاش طويل،ولكنهم على ما يبدو لم يصلوا لشيء،واحتدوا فيما بينهم، فعاد حزينًا مهمومًا.
لم يأكل، ولم يتكلم لفترة، ثم سأل عنك؛ قلت: نائم.
قال : أيقظيه.قلت لِم ؟
قال: أراه،فلعلي غدًا لا أستطيع .
حين رأيت عيونها تكاد تمطر دموعًا أدركت على سذاجتي أن أمي وقتها قضَّت مضجعي ليراني؛ لأنه في صبيحة اليوم التالي لم يكن ليستطيع فسّرتُ.. لماذا لم أرَ أمي بغير ثوبها الأسود حتى ماتت، والواضح أن أعمامي قد قرروا فيما بينهم إلقاءنا فى غيابات الجُب، جبٌ من تجاهل واضطهاد، وخصوصًا أن أمي، ولست أدرى من أين أتت بكل هذا العناد رفضت وبكل صمود، قررت أن تهزم تقليدًا شعبيًا فى ريفنا؛ فقد كان ضروريًا أن تتزوج من أحد أعمامي، والذريعة الجاهزة، ليعتني بابن أخيه، دفعنا معًا الثمن غاليًا من وراء تعنتها، فما كان منهم إلا أن وضعوا عنايتهم فى مكان آخر .
كانت « الدراكسة» بالنسبة لي، الدنيا التي لا أعرف سواها، وأمي على الأرجح هي بطلة العرض الوحيدة، وشيخ الكُتاب هو الشر الذي لابد منه،لكن الكُتاب كان الفرصة الوحيدة للانفلات من عنايتها الخائفة على وحيدها.

كنت طفلاً شيوعيًا، فالحياة في الريف معنى شديد العمومية، وأرى أن مصر كلها هي قريتنا، بل كانت براءتي تصوّر لي أن هذه القرية منتهى الوجود الإنساني. وطالما أن الجميع يذهب إلى الأرض ويزرعها، والكل يمتلك ثروات واحدة: أرض وساقية وثور وحمار، فلا حقد ولا ضغينة، بل هذا هو العدل آلمني حفظ القرآن، فهمتُ أن الناس في قريتنا ما أرسلونا إلى الكُتاب إلا من أجل تهذيبنا وترويض نفوسنا، وإن كنت لا أظن، بل كانت طفولتي تؤكد لي أنهم يكرهوننا، حيث أودعونا لهذا الشيخ المتصلف ليجعل من أيامنا سوداء ، على كل حال، ذهبت وحفظت؛ كي أتجنب ساعات الغضب والعقاب حيث شاع أن ثمة عذابًا للمتخاذلين عن حفظه.

كنت شديد الحنق على الشيخ محمد رفعت والشعشاعي، ينطلق صوتهما من راديو البيت، فاستشيط غضبًا من مقدرتهما على حفظه، وإن كنت أرى أنهما يخدعوننا، حيث أن الصندوق الخشبي للراديو لا يوضح إن كانوا يقرؤون غيبًا، أم يفتحون المصحف ويقرؤون، لكن كنت أطرب له وأحبه تعاملت أمي مع الحياة بروح زاهدة عازفة عن ممارسة أي شيء ولم تسع من قريب أو بعيد أن تشعرنى بهذه الحلول المفترضة للنجاة من بشاعة حالنا، رغم أن ما تركه جدّي لم يكن قليلاً، ولم يكن كثيرًا على نفس الدرجة لكن رغبات الانتقام التي تعتمل فى نفوس من يمتلكون المال كانت واضحة وجامحة في آن، لكنها رفضت، ولم ترضخ.كانوا يرسلون لنا ما يعيننا على الحياة وليس ما يجعلنا نشعر بشيء من الترف، وظل أخوالي يقومون بدورهم على أروع ما يكون لفترة كانت كفيلة باستفزاز هذه المنظومة المتجبرة، فساهموا بسخاء.

أكثر ما كان يؤلم أمي أن هذا العطاء السخي من منطلق الخجل، وليس بدافع الرحمة بهذا اليتيم,لكن لستُ أدرى لماذا كنت أعتبر أن تصرف أعمامي من منظور أمى ليس سيئًا دائمًا،فالخجل ذاته والرغبة فى التواجد الإيجابي فى حياتنا فى مواجهة دور أخوالي،معنى ليس مثلبة فى حقهم،وإن كنت أشاركها تحقير دوافعهم للعطاء أصلاً .

اليوم فى الريف طويل جدًا،النهار طويل والليل كذلك،ومساحة نشاط طفل فى هذه الظروف مساحة شديدة الاتساع،فليس مطلوبًا منّى أن يصطحبني والدي معه إلى حقله - لقد مات - أو مطلوبًا منّى أن أتجول بالحمار لقضاء أي طلب، الكُتاب واللعب، وصيد السمك من ترعة في الجوار،الاستلقاء على الأرض،والتأمل في السماء والخضرة والعصافير، والاستماع إلى ألحان الطبيعة نهارًا؛ ونشاز الليل المصحوب بأوبرا بحيرة الضفادع .

السرعة عند الجري، والتسلق الخفيف للأشجار، والقدرة على التخفى عند الخطر،عند ارتكاب ما يستحق العقاب،مواهبي المطبوعة، كنّا أطفالاً كُثر فى الواقع،على الرجل الريفي أن ينجب كثيرًا، فالأرض تحتاج إلى رجال،ويجب الاحتياط لظروف القدر، فالموت في الريف ولاسيما عند الأطفال، ركن من أركان اليوم المعاش.

عانيت شُحًا في تكوين الصداقات،أنا شريك لعب فقط، ولست أدرى هل هذا كان ضربًا من تشاؤم؟أم أنني كنت أستشعر فى نفسي أنني مفارقهم يومًا. أو ربما كان تميّز عائلتنا نسبيًا مجلبة لتلافى صحبتي، رغم أنى لم أكن أختلف عنهم فى كثير .

ظلت هذه البصمة معي بطول عمري،فلقد ظللت أتحاشى أن أبدو ميسورًا أمام أحد استشعر أنه يعانى ماليًا . ليس تفاديًا لتحريك أحقاده،وإنما لنبدو سواء ، لم يمنحني الريف سوى خبرة الموت،موت والدي وموت أمي من بعده بسنوات خمس،كنت واعيًا تمامًا عند موتها، وما سبقه من ظروف؛ولاسيما الشهور الأخيرة التى سبقته، أُصيبت بالتهاب رئوي حاد،مصحوبًا بحساسية قديمة، لكنه كان السُل،كان اسم هذا المرض مدعاة لمغادرة الأرض للمريخ فور سماعه.كان القرار الذى أبكانى رغم أن موتها نفسه لم يبكيني،أن تُعزل عنّى أو أُعزل عنها . وجاءت ساعة التنفيذ، وأصبتُ بنوبة هيسترية من بكاء شديد وصراخ مستمر،بل كنت أعتقد من سوء ظني فيهم أنها مؤامرة، ربما لتصفية أمي أو قتلها، حتى جاء عم والدى «عبد الحليم» والذي كنت أحبه فعلا،ليُهدئ من روعي وقال :إن هذا طبيعيٌ من أجلى وأجلها .. لم أقتنع وكنت شرسًا جدًا فى رفضي.

قال :ستنتقل لك العدوى، ستموت.أدركت أن أمي تسير لقدرها المحتوم،وأن إبعادي عنها هدفه استبقائي فى الحياة، ولكنّي قبلت أن أموت،ليس حبًا فى الموت، بل اعتقدت على سذاجتي وبرائتى أنى سأخون أمي،فنحن شركاء فى كل شيء .حياة كانت أو موتًا.وليس أقل من رد الجميل لها على بقاءها بجانبي، ولى وحدي .

أغرب ما فى الأيام الأخيرة التي عاشتها، أنها كانت تمتلك نفس راضية،تشعر بثقة أن الموت هو الحل الوحيد لأزمة حياتها التي أصيبت في مقتل من تلاحق ظروف مأساوية لم ترحمها، ولم تكن لتتحملها إلا من أجلي، لكن أغرب ما فى حديثها عبارتان لا يمكن نسيانهما أبدًا ..

- انجح أكثر من أعمامك
- إياك ترضى أن تبقى فلاحًا للنهاية.

كانت تقول هذه الكلمات وكأن عينيها تضغط ملامح وجهي،وأنفاسها الهزيلة تستقوي لتهزني هزًا، ازدادت الحالة سوءًا، والجميع» أخوال وأعمام» م يألوا جهدًا من أجل إنقاذها .. من أجلى على الأقل، لكن الموت كان أسبق من كل شيء، بعد أن مارس عليها المرض كل أشكال الاستنزاف.

كنت قابعًا فى ركن من أركان البيت، ولكنّى كنت مهيئًا لشيء ما لا يختلف كثيرًا عما قصدته هى عندما تعاملت مع الموت على أنه السبيل الوحيد إلى الراحة ، كنت شاردًا أفكر فيَّ أناوفيما وراء هذا الفقد المُحتمل. استشعر مخافة أن أُلفظ نهائيًا من الحياة، ولكنها تريد أن أنجح، ولا أكون فلاحًا للأبد مؤلم صوت النساء فى هذا الطقس، حيث الصراخ والعويل الصادم، هنا وفوْر خروجه منهن، أدركت أن إرسال الأمومة الصادر من محطة قلبها قد انقطع، ويجب أن أقوم لغلق التلفاز على مرحلة يجب أن تنتهي، وأخرى لتبدأ .

الكل يسعى أن يحتضني، الكل إن لم يكن يبكى من أجلها .. يبكى من أجلى،الكل يبكى إلا أنا، لم أبكِ، فلقد حسبت أن الموت رغبة مُحببة لديها،تراه نهاية جميلة ومريحة لها، وأن البكاء ربما كان سيغسل آثار كلماتها الدستورية التي أوصتني بها، ولكن ولأني كنت أحبها حقًا، لم أستطع أن أتهمها بالتخلي عنّى . تعلمت أن لا أكترث للموت، بل كنت أسخر منها على اعتبار أنه يبدو كحل، وطالما كان حلاّ، فلا أقل من تجاوزه إلى حلول أخرى تعنَّت الجميع معنا، ولم أستطع أن أكره أحدًا، ولم أكن أعرف

ماهية الكره أصلاً، أول ما كرهته،نظرات الشفقة التي كان الأهل والمعارف ينظرونها لي .يومها تعمدت أن أقف مع أهلي كواحد من الكبار، أتلقى العزاء على شفير قبرها، بل وكنت أتلمّس الكفن بيدي، أتمنى ألا يشاركني أحدٌ حملها،لكن لم يكن جهدي وقوتي لتستطيع ذلك، أشفقوا عليَّ بعد انتهاء مراسم الدفن والعزاء من أن أجلس وحدي فى البيت، رفضتُ دخول كل البيوت التى تم ترشيحها لأمكث فيها رفضًا قويًا، وبإصرار وعناد كاد معه أحد أعمامى أن يضربني لتجاوزي فى الثورة عليه، لكني كنتُ مُصرًا على موقفي الرافض لأن أبرح البيت. حتى تدّخل عمى وعمتي لفض النزاع وتركي على حريتي .

كان الصمت رهيبًا، حاولت أن أبدو قويًا، لم أكن خائفًا، كنت مكتئبًا فعلاً،أشعر أن صدري منكمش إلى درجة لا أستطيع معها استنشاق هواء يكفى لحياتي، عد ساعة من مكوثي وحيدًا جاءت عمتي وولدها يسألونني بالله أن يناما معي فى هذه الليلة،وقبلت على مضض؛ خوفًا من أن يفهما قبولي لطلبهما دليلا على الخوف من النوم وحيدًا فى هذه الليلة، وجدت كل ما كانت أمى تربيه من دواجن مع طلوع الصبح فى حالة عامة من السكون وكأنها تشاركني الحداد. وظللت لأسابيع أتناول الإفطار الذى يُعد لى وألتهمه عند قبرها، وكأنها موجودة فعلاً، أسبح في تخيلاتي الصبيانية فأراها توصيني بحسن الأكل، والتركيز على ما يفيدنى ويصلب عودى .

ماتت رغبات كثيرة، لم أعد أذهب إلى الكُتاب، لم أعد أشارك أحدًا اللعب، ظل التأمل مصحوبًا بالتوجس ، والخوف من المجهول هواء أتنفسه المرحلة التي تلت وفاة أمي هي التي خلقت أصعب إحساس من الممكن

أن يشعر به الإنسان فى هذه الحياة، فأول خبرة شعورية أكتشفها فى هذا العالم هى إحساس الثقل على كل من حولي،صعب أن يبدو الإنسان فى عيون من حوله حملاً ضاغطًا، من خلال يتمه وتفرده.لذا كنت أسعى فى هذه الحياة وبطول عمري، لأنجح بمفردي، وأكون ضيفًا خفيفًا ما استطعت .

لم يكن متاحًا لى أن أصارع الوضع القائم، وخصوصًا أن أمي ماتت، ولكنها كانت تلقى على كاهلي بهدف كبير، أنجح، ولا أكون فلاحًا للأبد وللآن لا أفهم فحوى النصيحة الثانية،رغم أنها فلاحة فى الأساس .. فلماذا لم تسعَ إلى أخباري عن علة هذا،و بدوري لم أنسَ تلك الرغبة،وبنفس الدرجة لم أكن أستطيع رسم ملامح الغد بمفردي،وخصوصًا بعض التفاصيل المالية والقانونية التي يجب حسمها، مثل الوصاية على ما حصلت عليه من ميراث والدي مضافًا إلى ميراث والدتي وإن كان ليس بمثل حجم ما لديَّ عند أهل أبى كان أخوالي يتحاشون على ما يبدو الحديث في هذا الموضوع،لاعتبارات نفسية، ولاسيما أعمامي،وإحساسهم بأنهم قد قتلوا شقيقتهم من الجحود والتخلي الذي رأته بعد وفاة أبي. جعلوا من عمى عبد الرؤوف وصيًا،وظلت الأرض بين عمتي «أنصاف" وبينه من منطلق إيجار.تم حسم كل المسائل المالية، وظن أخوالي ظنًا قد يكون سيئًا نوعًا مفاده،أن هذا هو أقصى ما يمكن لهم الحديث عنه،والآن يجب أن نفكر فى هذا الصبي وغده وتعليمه، والاهتمام به،وهنا عرضوا على أعمامى اصطحابي معهم.كان أقصى ما يؤلمني عدم رؤيتي لرد فعل ولو كاذب يفيد بأنهم لا يريدون ولكنهم لم يكترثوا كانت عمتي «أنصاف» صاحبة أقصى رد فعل .

حيث قالت :يا مصيبتي.ليه؟ .. هوعدم أهله ؟"
لكن بدا أن أخوالي قد جاءوا، وهم مجتمعون على الرحيل بى خارج البلدة وربما نهائيًا.لست أدرى لماذا شعرت بذلك، ولكن وجوههم كانت تخفى شيئً ا من الامتعاض،والكراهية لرد فعل أهلي أمام القصة برمتها .
أغلقنا البيت ورحلت، وأظن أن الرحيل لم يكن طاعنًا فى براءة طفولتي، ومشاعري بوجه عام، كان لزامًا أن أودع القبر الذى يرقد فيه أمى وأبى كنت أشعر بأصوات غريبة، ربما حقيقية، لكنها خارجة من ذاتي،أتخيلها فقط،ولدرجة جعلتني لا أسمع خالى وهو يحاول لفت نظرى لوجوب الرحيل،حيث أن النهار له عينان، بدأت أتحرك، والصوت محيطٌ بي كليًا :بالسلامة .. مع السلامة .. لا تنسى، وأشياء من هذا القبيل .
مكثت فترة فى «ميت رومي « كان أخوالى طيبين فعلا، وليسوا على نفس الشاكلة، وقياسًا على أهلي في المطلق .. كانوا أكثر رحمة وشفقة، لم يحاول أحدٌ منهم تكليفي بأي مهمة ولا عمل،ولم يضغطوا على ـ لأي قصد أو هدف، لكنهم في أنفسهم يريدون عمل شيء يساعدني ولو نفسيًا،كانوا يظنون أنني طفل مأزوم،رغم أنني كنت بين الحين للآخر أتحيّن الفرصة للتعبير عن نفسي،وعن حلمي وحلم أمي، لكن كانت تعتمل في نفوسهم أشياء يرون من خلال فكرهم أنها الحل المثالي لأزمتي من وجهة نظرهم .
في يوم من الأيام الفاصلة، تحدث معي خالي على اعتبار أنى رجل كبير كما كان يقول، وكانت المرة الأولى التي يظهر اسمها على مسمعي.
قال لي :تسمع عن إسكندرية ؟
قلت : لا

إسكندرية ؟!
لا لم أسمع .
ولا تسمع عن خالتك «رتيبة » ؟
لا لم أسمع .
أخذ خالي يتحدث عنها وعن طيبتها، وعن مدى انتمائها لعائلتها وحبها لأقاربها وحرصها عليهم،وعن ترحيبها بكل من يصل إليها منهم،إنها في الإسكندرية، لها بيت كبير،وكذا وكذا ....وعدني في المساء أنه سيشرح لى الحكاية كلها، لكن بدا بوضوح أن أخوالي لا يريدون بقائي معهم، لا عن عدم ترحيب، وزيادة جديدة لتكاليف تربيتي،ولكنهم يدركون أنني لن أنجح معهم، وأن الحياة في جوارهم لن تريحني، ويجب أن يتعاملوا مع أمري بشكل إيجابي،وبلا حلول عاطفية، وخصوصًا أنني تقريبًا يجب أن ألتحق بالمدرسة؛لأسير في مشوار تعليمي وحياتي، بالشكل الذي يستطيع تحقيق أحلامي وأحلام أمى معًا .
جاء المساء، و لم يتحدث أحد معى فيما كنا بدأنا به حديثنا فى نهار نفس اليوم،فهمت من خلال حديث جانبى تم على البعد؛ عن رغبة في رحيلي إلى الإسكندرية حيث خالتي،وكان الجدل عنيفًا، حريصون أن لا يظهروا كأخوال متخلين كأعمامي، وماذا أنا بقائل عنهم إذا سعوا إلى هذا الحل، وأن ترحيل الصبى مرة ثانية، ربما سيجعلني أكفر بالأقارب كلهم.
ذكاء أهل الريف كان لافتًا،فطري وحاد؛ ولأول مرة أصطدم بما يمكن تسميته بالمعادل النفسي،دون أن أفهمه بوضوح،لحداثة سني،يتحرك في عقولهم أن وجهة الطفل القادمة يجب أن تكون لمن يستحقه، ولا

يمكن أن يرحل فى طلب العلم والحياة من خلال أهل لا يريدونه، ل يجب أن نتعامل مع ابن شقيقتنا على أنه هدية غالية يجب أن تُمنح لمن يستحقها،لكي يحسن رعايته والتعامل معه بشكل إنساني يليق به وبنا،وفى نفس الوقت لا تكون الوجهة القادمة،وجهة تنتظر عائدًا ماديًا معينًا من تلقاء عنايتها به، وبالتالي يستفيد الصبى من اكتفاء من يربيه، ويستفيد هو من كل ما يصل إليه من دعم مالى من هنا وهناك،كي يظل على الدوام لا يشكل ضغطًا ماليًا على أى جهة بعينها،بالإضافة إلى بقائه فى أسرة تستطيع الحفاظ عليه وعلى مكتسباته،وحيث أن خالته المقيمة فى الإسكندرية سيدة مستورة ماليًا، هنا يتحقق الهدف الأكبر،وحيث إنها لا تنجب أصلا،فهم يعلمون عنها من جملة سجاياها أنها ستكون له بمنزلة أم حقيقية.معها يستطيع أن يكون كابن بطنها تمامًا .

سمعت هذا الكلام و مؤكد لم أفهم معظمه، كنت مستريحًا للفكرة،وفي دواخل نفسي أشعر بشيء من السعادة.فمن جملة ما سمعت أنني لن أكون ثقيلاً على أحد، وفى ذات الوقت أشعر أنهم يقدمون لها خدمة عبَّر عنها قولهم أننى سأكون كالهدية .

تم عرض الأفكار علىّ وحاولت أن أبدو حزينًا، لكن استجبت،وحيث إنني حلم أمى الباقي على قيد الحياة،رحلنا إلى الإسكندرية .

كانت الأعجوبة الأولى التى طالعتها طفولتي،ذلك الكائن الرهيب الذى يتلوى كالثعبان وهو يمر على تلك القضبان التى تمر قريبًا من قريتنا،كنت أخافه وأبغضه،بل واعتبره اختراعًا مزعجًا،كان القطار الذى أقلنا إلى الإسكندرية تحفة حقيقية، ولكنه كان يبدو لي فى هذه المرة

ولآخر مرة على الأرجح يد الإنقاذ التي ستنتشلني من واقع مأساوي مرير، كان الموت أحد أبرز سماته، والسلبية والتخلي،والحرص على ماديات لا قيمة لها أسلوب حياة .

## القطار.. العمر.. كلاهما يسرع

ركبت القطار، حاولت أن أكون قريبًا من النافذة لأنظر على البلد من خلاله، كل شيء يجرى، البيوت والحقول، أعمدة التلغراف، الكل يسرع ويمضى من خلفي. كنت مندهشًا، ولا أستطيع أن أجيب على السؤال المؤلم فى نظري، لِم الإيقاع في الريف بمثل هذا البطء؟ فهمت أن أصل الحياة يكمن في هذه السرعة، وأن الحياة الحقيقية لا تعترف بالبطء، البطء هو الموت .

وصلنا إلى الإسكندرية « محطة مصر» وهنا تذكرت كُتاب القرية، فما أراه يوم القيامة،الحشر، ومع ذلك لم يكن الزحام بمثل زحام الآن.لكنها مصر؛كل الناس،ليست مثل ملامح ما اعتدتهم في قريتنا،الملامح الثابتة التي لا تختلف فى كثير،وكانت الإجابة الجاهزة لسؤالي لخالي .. أنها المدينة.أومأت برأسي كأنني أفهم،والحقيقة أنني لم أكن أفهم معنى ما يقوله.

هناك أشخاص لا تستطيع الانعتاق من تأثيرهم، بل ويظل هذا التأثير يطارد فكر المرء منّا بشكل ضاغط أحيانًا، فلا يمكن أن أنسى عمة أمي «رتيبة» فما أن وقعت عيناي عليها، شعرت بدفء عجيب، وراحة كنت أحتاجها،كان وجهها يشع نورًا غريبًا، وصوتها لا يخرج منها بقصد الحديث معك،ولكن ليحتضنك بنبراته.كانت الطيبة والعطف يمشيان على الأرض، وسألت نفسي.. كيف تغافلت عن هذا الشعور يوم رأيتها عندما ماتت أمي .

« يا ألف أهلا وسهلا» هكذا بادرتنا فى أول ما وقعت عيناها علينا؛ كان

معى خالان من أخوالي، قدماني: ابن أختنا اليتيم الذي تركته لنا أقنعناه بصعوبة لأن يغادر.

ردّت: يا أهلا ومرحب بيه وبيكم .. الغداء كان ساخنًا أو يكاد.فلم يتأخر كثيرًا؛ جلسنا معها وأكلنا، وربما قد سبقتنا للغداء، ولكنها أكلت معنا إمعانًا فى الترحيب، كان عيبًا أن تتركنا نأكل وحدنا؛ لأنها لم تكن تأكل بشهية مفتوحة على ما بدا لى .

علمت من أين أتت أمى بالجمال،فلقد كانت أمي نسخة منها،ملامُحها تنذر بأنها كانت أنثى بكل ما تحمل الكلمة من معنى فى شبابها المبكر .

أراد خالي الانفراد بها،ليعرض عليها ما يريدون من أشياء تخصني،وأنه بصدد تنحيتي من المجلس لتنتهي هذه القصة برمتها،لكن ولأني شبه سعيد فعلا بالتواجد فى المكان،باغتُ الجميع،ووجهت حديثي لها مباشرة،وبسذاجة ربما أوجعتها،قلت لها: أخوالى أحضرونى هنا لأكون ابنك .. فما رأيك ؟

قالت:معلوم ابني.

قلت:لا .. سأعيش معك..

قالت جملة لم يكن ليتوقعها أحد، ولم أفهمها في حينها بوضوح، ولكنها ظلت فى ذهني ووجداني حتى فهمتها على حقيقتها، ومازالت إلى الآن تقتحم ذاكرتي:» لأ .. أنا اللي هاعيش معاك « قالتها، وكأن صوتها خارج من عمق العمق من قلبها .

رغم نظرات أخوالى الممتعضة، شعروا أنني قد وفّرت الكثير من عناء الحديث والمقدمات والخوف من عدم قبول رغبة كهذه،نام الجميع.

وفى الصباح وداع جديد،وكعادة خالي «سليمان»، يهتز ويبكى، فيحتضنني وتبلل دموعه ملابسي، كان طيبًا ورقيقًا، ويحبني لأنه كان يحب أمي، نزلت معهم حتى « باب الحارة» وبعد خطوات قصيرة جدًا نظر خالى خلفه، فوجدني واقفًا أنظر إليه.كنت على وشك أن أبكى فعلاً، ولكنه عاد واقترب منّى وقال بلهجة ريفية جميلة: أنت فرحان يا وله"

قلت: مش قوى

قال: تزهق تعالى

قلت: طب واسيب أمى لمين ؟

قال: أمك مين ؟

قلت: عمتك رتيبة

قال: هى بقت أمك ؟

قلت:مش أنتو اللى عاوزين كده .

قال:تقوم قايل عليها أمك كده ؟

قلت:طب وهو أنا أنفع هدية ؟

وهنا تدّخل خالى المتعجل وقال:نلحق وقتنا يا أخويا .. ولد ( ملامض) زى عيلته.

عدت إلى أمي الجديدة،فوجدتها ترتب لى غرفة لأنام فيها،بها كل ما يخصني.

جلست معي وقالت ما يشبه الدستور لشكل الحياة معا: لك عندي أمومة ولى عندك بر، أريدك رجلاً محترمًا، لأن هذا هو الطبيعي .

لأنك ابن لرجل محترم وسيدة محترمة، ومن باكر نقدم لك فى المدرسة.

على ما يبدو عليها من طيبة ورقة وحنان جم،لكنها الحاكم بأمره في مملكة

مترامية الأطراف، الناصحة الأمينة والمسيطرة على أسرة أخرى لا تنتمي لها برباط أوثق من رباطها بي، والغريب أن أولاد زوجها الراحل كانوا يحبونها فعلا، وربما أكثر من أمهم الحقيقية، ولكم كنت أندهش عندما أراها في ثوب الشدة والقسوة فى بعض أمورها المتعلقة بالحياة الأوسع خارج حدودنا معا. لكنها ناجحة في كل الأدوار.

كنت معجبًا بالإسكندرية كل الإعجاب، اعتبرها المقر الدائم لى، ولم يكن عقلى يتخيل أنني بعد هذا التاريخ بـ ٢٠ عامًا سأتركها مُرغمًا، مدفوعًا بقوة رفض لا يعلم مداها إلا الله .

اليوم الأول فى مدرسة الباب الجديد، تمنيت أن أرجع دون أن أتعلم شيئا ولم أفهم شعوري، يبدو أنني لا أحب الأماكن الضيقة والزحام، ولولا القدر العطوف الذى اصطفى هؤلاء الأساتذة الذين قابلتهم فيها، ربما لكان لحياتى معنى آخر واتجاه مختلف، لكن كنت أحب المسألة برمتها : مسألة التعليم والتحصيل،ورغم كم اللعب واللهو الذى كنت أمارسه كطفل، لكن بدا أن الله منحنى قدرة غريبة من بواكير عمري أن أعطى لكل شيء حقه،قراءة وحفظ وواجبات،ولعب ومرح مشطور المعنى.في بدايات عهدي بالمدرسة كان شبح أمى يطاردني فى النوم وفى اليقظة، وبشكل يومي، جعلني أشعر أن اللعب واللهو ربما سيخذلني فى صدد تحقيق حلم أمى فىّ، ولكن كنت أشعر أنني مخلوق لهذا الوضع،فلن أعود فلاحًا أبدًا .

كان التعليم رائعًا،ورغم براءة كتاب المطالعة،كنت استشعر معانٍ إنسانية جميلة ورائعة،ومدرسون أكفاء ينظرون للتعليم على أنه رسالة، فأستاذ الرياضيات رغم وجهه العابس. كان عندما يقوم أحد منّا بحل مسألة رياضية

يبتسم كطفل من فرط سعادته بنا، وبحسن فهمنا، كانوا طيبين ورائعين. الغريب أن «رتيبة» كانت تتابع كراساتى وواجباتى وتنظر لها بإمعان شديد فى متابعة شبه يومية ليومي الدراسي، حتى اكتشفت بالصدفة إنها لا تقرأ ولا تكتب أصلا، ولكم كنت أحاول أن أكتم الضحك وأفشل عندما اكتشفت هذه الحقيقة التى فجرت نوعًا من الضحك الهيستيرى فى نفسى لدرجة كانت عيني تدمع من فرط الضحك، حتى تجرأت وسألتها: أمى أنك لا تقرئين ولا تكتبين .. فماذا تتابعين ؟

فضحكت وقالت : حتى لا تظن أنى جاهلة، والشيطان يهيئ لك أن تخدعني، لازم تبقى ملتزم قدامى، وبعدين من قال لك أنى أتناول كراريسك لأقرئها، أنا بدىّ أشوفك منظم وحاجاتك حلوة مترتبة أم لا ..

كنت سريعًا جدًا، أعود إلى منزلنا من محطة مصر إلى كوم الشقافة عدوًا خبرة ركوب القطار هي التي دفعت بسذاجتي وقتها، أن كل شيء يجرى من حولى، السرعة هي الحياة، والتوقف والكمون هو الموت والنهاية ولاعب كرة من طراز فريد، وربما كان هذا هو السر الذى ربطنى بصديق من الصف الخامس،كان يريد استكمال فريقه، كنت أقف منفردًا مستندًا إلى شجرة،أنظر إلى اللعب، كنت أصغر من أصغر تلميذ منهم، لكن كان بنياني قويًا،وبعض من الآثار المتبقية من اللكنة الريفية تكاد تجعلهم يسخرون منّى،فدعاني للعب، من منطلق تحصيل الحاصل، لاستكمال الفريق ليس ألا، فشاركتهم.كنت سريعًا ومع ذلك لم يمنحني أحد الكرة، فطلبت ممن اعتقدته زعيمهم أن أحرس المرمى، حتى لا نفسد شكل الفريق طالما أنهم

يلعبون، أو ألعب معهم كمالة عدد،نظر إليّ بدهشة، وقال :عُد إلى المرمى واحرسه، ولكم أدهشهم أنى أبليت بلاءًا حسنًا، تناوب أحدهم معي حراسة المرمى، فعادوا إلى سابق أسلوبهم، تضايقت وقتها، فهجمت على أحد زملائي في اللعب، وأخذت الكرة، وركضت بها متجاوزًا الجميع وأحرزت هدفًا، وخرجت من الملعب، تناولت حقيبتي ورحلت، لحقني أحدهم حتى ظننت أنه جاء ليضربني، كوني أفسدت الفريق بانسحابي؛ فباغته بضربة فى وجهه فسال الدم من أنفه، اندهش ولم يحرك ساكنًا، والتف الجميع،كنت متحفزًا لهم جدًا،وبغضب منّى مبالغ فيه، صرخت في وجوههم وقلت:» أنتو بتعملوا كده ليه" .

أخذني زعيمهم باللين وربما تعاطف معى فى نفسه، قال: أنت اسمك أيه ؟

قلت: يوسف

قال: لا تحزن، أنت اللاعب الأساسي، أنت طيب، لكن لا أمان لك تعال معى نتصالح مع زميلنا. أكثر ما تألمت له فى عمري، أن ظلت هذه الذكرى فترة طويلة،كنت متسرعًا،على الرغم أن زميلي هذا قد أراد اللحاق بي؛لاسترضائى،شعر أنهم أهانونى، المؤلم أنها كانت المرة الأولى والأخيرة التى امتدت يدى فيها بالسوء لهذا التلميذ، والذي كان يسبقني بصفين دراسيين؛وصار أقرب أصدقائي لنفسي.

كنا أطفالا ولا نعرف حقيقة الظرف الذى يحيط بنا، ومصطلحات المرحلة.. الملك، الثورة، الجيش، مفردات تكشف عن معطيات تاريخية لم نكن لنعرفها بوضوح، وإن كنّا نرى الناس فى حالات مختلطة من السعادة الممزوجة بالحزن والخوف .

كانت رتيبة تبكى بشدة على مغادرة الملك فاروق، تراه ملكًا طيبًا، لم يكن يستحق ما تعرض له من أشياء على يد الثورة، ولكم تعللت لها بأنهم يقولون أنه رجل فاسد، فكانت تنهرنى بشدة .

تحركت الأيام بنا، وظهر اسمه لأول مرة على مسامعنا، بعد أن فهمنا بعد ذلك بسنوات كيف تم تصفية الرجل الذى احتضن الثورة فى مرحلة الخطر» محمد نجيب »، والذي ما أنجبت أنثى طفلا في كوم الشقافة وكرموز وما حولها إلا وكان على أسمه غالبًا، تيمنًا به.

ظهر عبد الناصر كنجم للمرحلة، وفى احتفال عام ٥٦ كانت أكبر ضرباته وبداية لأعظم معاركه وانتصاراته، فلم تكد تمضى سوى شهور قليلة على انسحاب القوات البريطانية التى ظلت تحتل مصر منذ سبتمبر ١٨٨٢ حتى الجلاء في ١٨ أكتوبر ١٩٥٤.

بدأت بوادر أزمة بعد رفض البنك الدولي تمويل مشروع لبناء السد العالي،وحدوث اشتباكات واعتداءات إسرائيلية على قوات مصرية فى غزة،ودعم الثورة الجزائرية الوليدة ضد الاستعمار الفرنسي .

توجه"ناصر" من القاهرة إلى الإسكندرية لإلقاء خطاب احتفالا بأعياد الثورة،ولم يكن أحد على الإطلاق يتوقع المفاجأة التى أعدها،وفيما ظل يتحدث عن الموقف الدولى والعربى ورفض تمويل السد العالى عاد إلى أوراقه ليعلن باسم الأمة.. قرار من رئيس الجمهورية.. تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس.. شركة مساهمة مصرية.

انفجر الميدان بالهتافات وعمت أمواج الفرح مصر كلها.

كانت إسرائيل مطمئنة إلي بعض الدول العربية، إما لأنها بعيدة عن

حدودها أو وقوعها تحت نفوذ دول موالية لها، أو لعدم قدرتها عسكريًا على التصدي لمواجهتها، وتعتقد أن مصر بعد قيام الثورة هي العقبة الحقيقية فى طريق أطماعها.لذلك انتهزت الفرصة. واتفقت مع كل من انجلترا وفرنسا وبدأت القوات الإسرائيلية تهاجم الحدود المصرية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦.. أنذرت الدولتان الاستعماريتان كلا من مصر وإسرائيل بوقف القتال على أن تقف قوات كل منهما على بعد أميال قليلة من جانبي قناة السويس،ولما رفضت مصر الإنذار،هاجمت القوات الإنجليزية والفرنسية منطقة القناة لتطويق الجيش المصري فى سيناء.

استمر الفدائيون من رجال الجيش بالاشتراك مع الشعب فى القتال ببورسعيد،وتدخلت الأمم المتحدة، ونددت بالعدوان وطالبت المعتدين بالانسحاب،ضغطت الولايات المتحدة على كل من انجلترا وفرنسا. فاضطرتا لسحب القوات، بعد أن وافقت مصر على قرار الأمم المتحدة بوجود قوة طوارئ دولية على الحدود الفاصلة بين مصر وإسرائيل .

المراهقة التي عاشها جيلي كانت سياسية وطنية، في وسط كبير من الصراعات التي يمكن أن تخلق جيلا من التحدي،والطقس عمومًا كان صعبًا ومختلفًا؛ جعلنا على حداثة عهدنا نلتف حول ناصر وحلمه ومشروعه .

ظلت حياتي تسير على شكلها النمطي، كمراهق لا يكترث، ولكن لديه كلمات مقدسة لا يمكن الانفلات من تأثيرها، ولا بديل عندي سوى أن أنجح، ليس لأكون أعظم من أعمامي، ولكن لأني وبكل صدق لا أريد أن أعود فلاحًا مرة أخرى،حيث رحت في عشق الإسكندرية،وبدأت عهدًا جديدًا من مصالحة مع الدنيا .

كان «عمر بشير» أشد إيمانًا منّى بالمرحلة، وكان الهاجس القومي هو محور تفكيره،ورغم أنه لم يكن كبيرًا للدرجة التى تتيح له تنظير الفكر السائد،لكنه كان قويًا فى حجته، وخصوصًا عندما بدأت الأجواء كلها تنذر بالاشتراكية والشيوعية كفكر متكامل، بعد هذه السنوات القليلة من قرارات التأميم وبعد أن أنهينا دراستنا الثانوية، سبقني هو إلى كلية العلوم، والتحقت أنا بكلية الهندسة.. كان يتحاشى الحديث معى فى هذا الطرح، ولكم حاولت أن أفهم السبب، ولكني لست ممن يحاول استبطان الناس إلا لضرورة .

في نقاش ساخن، لولا أن تحليت فيه بالحكمة، كنت أقوم بالرد عليه نقطة نقطة من النقاط التى يعرضها، فما كان منه إلا أن أعلن أن من هم على شاكلتي لا يصح لهم الحديث عن الاشتراكية، اندهشت وشاركني الدهشة حمدي عليوة، وعبد العليم قنصوة والذين كانوا جيلاً واحدًا، وبسؤاله أجاب بشيء من الاستخفاف وقال: يوسف رأسمالية زراعية تألمت لقوانين الإصلاح الزراعي .. وجدت نفسي غير محتاج للرد عليه،ليس للعجز عن الرد، أو عن فهمه،كنت أشعر أن نقاش كهذا من الممكن أن يكون حدًا فاصلاً بيننا، وخصوصًا أن هذه المرة لم تكن الأولى التي يتحدث فيها من منطلق ظروف شديدة الخصوصية فلقد كان شديد الحساسية للفقر وأحسبه كان يعتقد أنى ثري جدًا.

فحياتي كتلميذ وطالب لم تكن تتشابه معهم فى كثير من الظروف، وخصوصًا فى اتجاه العمل الصيفي؛ فالجميع بما فيهم هو كانوا فيما بين مصنع « باتا » فى القباري، أو في سوق الخضار بالحضرة، أو كعبد العليم قنصوة مثلا والذى كان يعمل بسينما «كونكورديا » .

انسحبت بهدوء، ولحقني حمدي، لكن تعللت بأني مُتعب قليلا .
ذهبت إلى البيت، قمت بتقبيل يد «رتيبة» كعادتي، لكنها لاحظت أنني مهموم، ولكني لم أتحدث معها فى شيء.
لـ « عمر بشير» صافرة مميزة أعرفها إذا كان بصدد استدعائى، نظرت من شباك غرفتي فوجدته، طلبت منه أن يصعد فصعد، كانت «رتيبة» تحبه، وتعتبره شخصًا مكافحًا، صعد وقام بتحيتها، وانفردت به فى غرفتي، ودار بيننا حوار طويل جدًا، كان يمتلك صوتًا عاليًا قليلا بعكسي، فانا لست من هواة الصوت المرتفع، ظل يتحدث عن نفسه، معظم الأشياء التي تحدث فيها لم تكن لتخلوا من مأساة، وأن التعليم الذي يعيشه حمل زائد عليه، وعلى أسرته الشديدة التواضع، وأنه ليس أخ كبير وحسب، ولكنه أب يقامر من أجل نفسه، ومن معه، من أخ وأختين غيره، لا يعلم مستقبلهما إلا الله وأن أسرته الاستثناء الوحيد في عائلة كل من فيها أكثر سعادة ورخاء منهم .
قمت بتوضيح الصورة، وأنها ليست كما يظن، وإن كنّا مستورين نسبيًا، فإن الظروف التي أعيشها هنا، ليست مدعاة للقول بالثراء والاستغناء، بقدر ما هى ليست تعبيرًا عن ضرورة تجعل منّى أعمل من أجل شيء، فلا أنا أحتاج المال، ولا«رتيبة» تحتاج أيضًا،و إن كنت أتابع لها بعض النشاطات التجارية التى تربطها بأبناء زوجها.
انصرف «عمر» وجلست طويلا مع نفسي، هو طيب بالفعل، ويراجع نفسه، مؤكد يحبني ويتعاطف معي، ولكنه لا يستطيع الانفصال عن طبيعة مأساته، والواضح أنني أشكل له ضاغطًا نفسيًا معينًا يوقظ حقيقة الفرق -على الأقل من وجهة نظره - بين حالتي وحالته.

# لا نوم ولا دمع

كنت أركض ركضًا شديدًا فى هذه الحياة، وأظن نفسي رجلاً قد خُلق ليكره النوم،في السنة الثالثة اكتشفت،وكأنني لم أكن أشعر بكوني حاصلاً على تقديرات مرتفعة قياسًا على غيري من الطلبة، وجدت أن الحلم يجب أن يتخذ منحى آخر غير أن أكون مجرد مهندس، بل يجب علىّ أن أكون أستاذًا فى الهندسة، لكن يبدو أنه ظل حلمًا أن أكون كذلك فى مصر على الأقل ، كان الطرح الشيوعى حُمى تستعر، ولا أستطيع أن أنكر تأثري الشديد، ليس بالطرح وحده، ولكن بالأدب الروسي ذاته، على اعتبار أن روسيا هى الممثل الشرعي الأنجح فى مجال التطبيق كدولة كبيرة ومؤثرة، وكان «عمر» هو الآخر متيم به،يجعل منه دينًا للمرحلة،ربما كنّا نختلف على إشكالية التناول والتطبيق، فمنذ وقت مبكر جدًا، رغم عدم تديّني الواضح، أرى أن الإسلام كدين لا يمكن الطعن بأي حال من الأحوال لأن نجعل منه دينًا متأخرًا عن مسايرة طرح كهذا، وخصوصًا من خلال البنية الاقتصادية ومسألة العدالة ذاتها،وإن الجدلية التاريخية وغيرها من المستويات الأخرى، لا يمكن أن تنسحب كليًا على العتبة الإيمانية، ولكن هيهات أن يفهم.وأنا أيضًا مكثت فترة طويلة من عمرى بعد ذلك أحاول تنظير المسألة، بقصد أن أقنع بها نفسى على الأقل، لكن أعترف للكُتاب والجزء الكبير الذى حفظته من القرآن أنه كان يقف بالمرصاد لهذه المُسلمة التى لا تتناسب مع معتقداتي ككل .

كانت علاقتى بـ «محمد فهمي» أحد الشيوعيين الكبار، والذي كان ينتمى لأمي بقرابة بعيدة، علاقة التلميذ بالأستاذ، وخصوصًا أن الرجل كان مثقفًا لدرجة مخيفة، و كنت ممن حضروا معه اجتماع ١٤ مارس٦٥، والذي حاولوا فيه مواصلة النشاط الشيوعى باسم التيار الثوري، لم أكن أدرى وقتها لماذا دخلنا هذه المنطقة من الصراعات مع النظام، والذي كان بدوره يعطينا المؤشر الدال على أن المرحلة لنا ولأفكارنا .

شعرت أن الوضع العام ربما قد يخلق شكلاً من أشكال الإعاقة للحلم الكبير،وخصوصًا أنها السنة الأخيرة، بالفعل كرست كل مجهودي من أجل التخرج، وبالفعل حدث،ووقعت الكارثة .

إن مصطلح أهل الثقة هو أسوء ما تمخضت عنه الحقبة الناصرية، فرغم أنى كنت ثاني دفعتي، لم أعين كمعيد فى الكلية التى كنت أحبها فعلاً، والتي كنت أشعر أنى مخلوق من أجلها، ولقد صُدم الدكتور «محمد عمرى عقيل» صدمة شديدة عندما أخبرته بهذا التصرف، الذي أتى بالحادي عشر ليأخذ فرصتي، لمجرد أنه منتم لواحد من رجال الثورة المجيدة .

لستُ مثاليًا للدرجة التى أشعر معها أن ما حدث كان تصرفًا عاديًا، ولست ممن يستطيعون أن يأخذوا الموقف على أنه ثمن بسيط للطرح الشيوعى الذى ثبت واقعيًا أنه طرح مرفوض من النظام، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من كراهيتي للدولة، والنظام السياسي كله، لكن لم تنصب كراهيتي لمصر إجمالاً الخريطة والناس لا مجال لكراهيتها مطلقًا .

الأمور تسير رغم كل شيء؛ وكانت المرة الأولى التى أرى «رتيبة» لا تحاول تعنيفى على تأخرى المستمر خارج البيت، كانت حياتي مع «عمر بشير»

غاية في البوهيمية، تأثر بشدة لما حدث، ولم يكن يتصور أن طموحاتي كادت أن تصل لهذا المنعطف، من خلال قناعاته التي ترى ظلمًا، وما جدوى التعليم لمن هو فى مثل ظروفي، ولكن كان يعرف سلفًا أننى لن أعود لفلاحة الأرض مطلقًا .

انطلقت في حياتي،قارئًا ومثقفًا وصعلوكًا؛ما بين ساعات الليل فى الكثير من أماكن التسلية بكل شيء.

كانت « لورا »الفتاة اليونانية التي تعمل في محل لبيع الزهور،تحبني كرجل مهم في حياتها،وأنا أحبها كحالة هروبية من واقع شديد الجور، كانت جميلة، ومقتنعة بي، ولم يكن للدين والثقافة أي مرجعيات مُعيقة تحول فيما بيننا، تسكن غرفة في عمارة خلف الكنيسة اليونانية، نلتقي فيها.كانت متّى بمنزلة زوجة، وإن كنت أظن أنها لو كانت زوجتى فعلا، ما كانت لتصنع ما كانت تصنعه، كانت كأم حانية مُحبة، وفى الفراش فتاة ليل لعوب لا تُبارى . لم أكترث بهذه العلاقة، ولم تكن هى نهاية المطاف لنزواتي، و ظلت هي وأنجيلا و إيميليانا شركاء المعصية والضياع.

ظلت «لورا» من خلال ما كانت تعاملنى به، أجمل من التقيت بهنَّ.

وأخلصهنَّ لي، كنت إنسانًا لا يفهم فى الحب، بقدر ما يفهم فى اختراع أسباب الملل التى تجعله هروبيًا دائمًا.

كانت مستعدة للبقاء فى مصر رغم هجرة معظم أقاربها، ومستعدة لاعتناق الإسلام، في حين كنت محتاجًا أن أتذكر أنى رجل مسلم .

غفلة شديدة، كان «عمر» شريكًا لى فى معظمها، لكنه لا يشاركني هذه المغامرات الغريبة من وجهة نظره، مع العلم أن هذه التجارب كانت مجانية

أريد أن أحب فعلا، ولكن لا أريد تحطيمًا جديدًا من جراء حب فاشل لأي سبب.كنّا نعتقد أن الثورة لم تعد هى الحلم،بدأت تكمم الأفواه وتصادر الحريات، وأن المرحلة كلها تسعى حثيثًا لترسيخ مبدأ الحاكم الفرد بشكل مقيت، كي تضرب قناعتنا بعبد الناصر فى مقتل، ثم جاءت اليقظة الموجعة على جيلي كاملاً وتلقينا الصدمة.

كنا في القاهرة، ومعه مجموعة قصصية يريد نشرها فى مدينة الثقافة والفن الغريب أننا انتصرنا يوم ٥ يونيو، ونحن في الإسكندرية، وتأكدت هزيمتنا في القاهرة، في تطور غريب، ليس للحرب، بقدر ما كان تطورًا لمستوى الكذب الذى سمعناه عن انتصارات مدوية لم تحدث .

يا ألهى !! شعرت أن القاهرة تبدو فى أسوء صورة، الحزن في قمته، والناس في شرود، الشوارع شبه خالية من المارة، و«عمر بشير» يبكى من داخله ويهتز فى مقاومة مستميتة حتى لا ينهار كليا، توسلت له أن يبكى؛ لأني أخشى عليه هذه الحالة، كانت عيناه كجمرتين، ولما عجز عن ضبط نفسه انهار تمامًا احتضنته وحاولت التسرية عنه، ولست أدري لماذا لم أبكِ ؟ لم أذهب مثله فى نوبة بكاء مشابهة، كنت مشفقًا عليه وعلى القاهرة، التي بدت رمزًا طاعنًا للحزن والانكسار

جلست فترة وحيدًا فى بيت كوم الشقافة وتألمت » رتيبة » لهول منظري، وعدم تواصلي مع أيامي بالشكل المعتاد، سألتني عن «عمر» وأين هو الآن ؟ لكننى لم أجب، استأذنتها للنوم، لكن هيهات أن أنام.

وللمرة الثانية ورغم عشقي لعبد الناصر يخذلني هذا الشعب الطيب بعد خطاب التنحي، ويطالبونه بالاستمرار من أجل تحقيق النصر، والنهوض

بالدولة فى مواجهة المتربصين بنا وبأمتنا !!
للمرة ربما الثالثة أو الرابعة نختلف أنا و «عمر بشير» حول التنحي، ذهبت لاعتباره سيناريو ملفق من سيناريوهات «هيكل» البارع فيها، وكاد أن يشاطرني الرأي، لكنه كان مصريًا أكثر ممن قاموا ساعتها مطالبين عبد الناصر بالبقاء، توالت الأيام، ولم يكن من السهل الخروج السريع من كم الحزن الذي أصاب البلد كلها.
كنّا على ولاءنا للشيوعية، وبدأنا ندعو لتصحيح الأوضاع من خلال إعادة النظر فى المسألة. بدا كلٍ منّا أكثر ثورية فى هذه الفترة، وفى يوم من الأيام الفاصلة لشهر نوفمبر ٦٧ وأثناء عودتي لبيت كوم الشقافة تم القبض علىّ، وفى نفس الوقت تم القبض على «عمر بشير» لمجرد أنه صديقي المقرب، وليس لكونه شيوعيا، وكانت تلك هي السخرية كلها، والتقيت به فى معتقل الفيوم.
كنت أضحك رغم كل شيء، اكتشفنا أن الصولات والعساكر يعرفون أننا هنا كوننا كفارا، ولسنا لصوصًا أو قتلة.
كان «عمر» يميل في تجربة الاعتقال إلى الوحدة، ولا يريد أن يلتقي أحدًا من الرفاق.
كان الموقف بالنسبة لى موقفًا مأزومًا، وأقصى ما كان يؤلمنى رد فعل «رتيبة» من وراء ما حدث، ولم أكن أتصور ماذا صنع أهلي، أعمام وأخوال.
في أمسية حالكة أطلعني «عمر» على قصة طريفة تتلخص في حوار تم مع سرب من النمل كان فى زنزانتنا.
كان بارعا فى استخراج أي موقف يصلح لأن يكون أدبًا مقروءًا، قام بصنع حوار مع النمل على أنه شيوعى مثلنا، وكيف تم القبض عليه، وهل كان

ذلك عن طريق حبيبات من السكر، وُضعت في طريق عودته من سيناء وغيرها من إسقاطاته البديعة على المرحلة بالكامل. كان ينظر لي ويقول: أما آن الأوان أن نكفر بكل شيء ؟

كنت مستعدًا ومُحملا بحالة لا يمكن تخيلها من الرفض، وكأن دمى نفسه كرات الرفض البيضاء وكرات الفكر الحمراء، وصلنا إلى الإسكندرية، كنا نحتاج إلى «حمام» يزيل كل ما عانيناه طوال فترة ليست بالقصيرة اتفقنا معا على أن نتقابل لوضع الخطوط العريضة للمرحلة التالية .. التقينا فى قهوة عند شارع راغب باشا، وكان ممسكا بطباشير، يرسم على رخام الترابيزة بعض النقاط، ويقوم بشرحها لي، يوضح لي أخطاء أفكارنا، كان باديًا عليه التعب الشديد، وعصبيًا جدا، ويتلعثم بشكل لم يكن فيه قبل تجربة الاعتقال. انتهى من كلامه، وانتظر ردى عليه، والذي كان مفاجأة له حين قلت : عمر .. تقريبًا لم أسمعك، لكن ما كتبته بالطباشير من خطوط ونقاط أعتقد أنها متقاطعة كلها .. وفهمت ما كتبته أننا فى ظل كابوس مفزع وليس حلمًا جديرًا بأن نحلمه، يا صاحبي .. الحجاج بن يوسف صلب «الزبير» ولكنه كان يخشى دعاء أسماء بنت أبي بكر عليه، وأعتقد أننا سمعنا فى المعتقل دعاء بما فيه الكفاية، ولن انتظر حتى تستجيب السماء .. هنا فهم «عمر» أنني أشير إلى الرحيل .

لم أكن تخيل للحظة بعد هذه التجارب العصيبة، وخصوصًا بعد فترة الاعتقال الصعبة، أن تتفنن الحياة كعادتها أن تحرمني كل من أحبهم وأحبونى بإخلاص نادر، ودون هدف أو مصلحة من هذه المحبة، ولم أكن أصدق أن تخلق هذه الحادثة فى نفسى هذا الأثر الصعب، وأنا اليتيم الذي

ظن بموت أبيه وأمه، أنه لن يتأثر لفقد أى إنسان مهما بلغت قيمته من نفسي، ولست أدرى تحديدًا لماذا شعرت أن «رتيبة» خدعتني بشكل يفوق كل مركبات الخداع التى سبق وأن تعرضت لها من قبل .

كانت قوية رغم الشيخوخة، وصحيحة البدن رغم ثقل حركتها نوعًا، كانت تحبني وحسبي هذا من هذه الدنيا التى كانت تلفظني حظوظها مهما اجتهدت.كنت مكتئب المزاج، ضيق الصدر، وقلبي يدق بعنف، بل كنت فى أسوء حالاتى النفسية بشهادة عم «جاسور» عامل البوفيه في صالة «بلياردو بالاس»، اضطررت للخروج من صالة البلياردو قبل أن أكون أكثر ثقلاً على كل من حولي، ظللت أمشي من محطة الرمل، مرورا بكل الشوارع المؤدية لكوم الشقافة لعلّي أهدأ، أو على الأقل أعرف سببًا للحالة الغريبة التى أمر بها، وصلت البيت ووجدتها مستيقظة، ولأول مرة فى حياتى أبكى بلا سبب، ألقيت رأسي على صدرها وبكيت بعنف.

كنت متأكدًا أنها تعلم أنى حزين لكم الظروف المتلاحقة التى مررت بها، وخصوصًا تجربة المعتقل، كانت مشفقة علىّ تمامًا، ولكنها بادرتني بالسؤال : يوسف مالك ؟

قلت: لا أعلم، ولكنّي منقبض بشكل مخيف، أشعر بأشياء لا أستطيع تفسيرها.. هي نفسها قالت أنه نفس شعورها، وأن لها ثلاثة أيام على هذا النمط، ترى أشياء غريبة وعجيبة من أحلام رغم أنها شبه مستيقظة. فسرت لها الأمر على أنه نوع من القلق على مصيرى والرثاء لحالي.

لكنها نفت بشدة، واعتبرت أن ما نحن فيه فضل ونعمة، فطلبت منّى أن أحضر لها العشاء لأنها شديدة الجوع هذه الليلة .

قمت بتحضير كل شيء،ونظرت إليها وناديتها:أمى .. أم يوسف .. العشاء ولكنها لم ترد،اقتربت منها،كانت للتو قد خرجت دمعتان من عينيها،قلت نائمة.. وكيف تنام وهى فى هذا الجوع ؟

حركتها بلطف، ولكن كان جسدها باردًا نوعًا حملتها إلى فراشها وأغلقت عينيها،نظرت إليها وقلت فى نفسى:ها هي آخر المعاني الجميلة تموت وتتركني، الآن فقط أشعر فى نفسى وكأنني بلا أهل فى هذه الحياة رغم كثرتهم كان من المفترض أن تعطيني إشارة أو تلميحًا، ولكن هيهات وأنا مسجون فى إحباطى ونزواتي وليلى السرمدي .

اندفع الناس من كل حدب وصوب،أبناء زوجها وأخوالي،استأذنت أن أحضر الغُسل، ولا أذكر أن رأيت نورًا يشع من وجه إنسان ومن كل تفاصيل جسمه كما كانت رتيبة، وكنت أظن فى نفسى أننى مدين بالكثير لهذه السيدة، والتي لولاها ما كنت أبدًا، ووجدتني بلا وعى أُقبل يدها وقدميها على السواء، حتى رحت فى نوبة من بكاء، كان يدفع بالناس لطلب خروجي من المكان، ولكنّي تعهدت بالصمت والثبات، ولكنّى كنت أبكى من الداخل.

بعد أن سترها الكفن كله،شعرت وكأنه الستار الذى أُسدل على أروع مسرحية إنسانية عشتها فى حياتي، مع إنسانة عظيمة بكل ما للعظمة من معان كبيرة وعميقة.

كان مشهد جنازتها رهيبًا، ولم أكن لذهولي عنها معظم الوقت أظن أن كوم الشقافة كلها تبدو حزينة عليها، فما كان منهم سوى الخروج خلف نعشها حتى ظننت أن الحيّ بكامله يدفنها معنا، وكان خالي علم الدين ومبروك

يريدان السفر بها إلى بلدنا، ولكن قوبلت رغبتهما بثورة حب من أبناء زوجها، وجملة كبيرة من أهل الحيّ على اعتبار أنها أمهم فعلاً، وأنها منهم، فما كان منّا سوى الانصياع لرغبتهم المُحبة .

كيف مرَّ هذا اليوم العصيب.. لست أدري، كان «عمر» يشعر كم الفراغ الذى ستخلفه بغيابها، كان معي في كل التفاصيل، وكان كعادته بكّاءً بشدة هو أيضًا كان يحبها بضراوة، ولكم كانت تحنو عليه وتعتبره شابًا مكافحًا.. الكل انصرف، ورحلت الجموع، وظل معي حتى باب البيت ، كنت مرهقًا جدًا، ومتعبًا بشكل يدعو للرثاء، لم يكن «عمر» يفضل أن أذهب إلى البيت، ولكنّى أصررت على الذهاب، حتى إني طلبت منه أن أبقى وحدي فى هذه الليلة. واستجاب لمعرفته عنادى فى مثل هذه المواقف .

كان سلم البيت يبدو أكبر وأعلى عما كان،صارت الشقة في مخيلتي بعيدة وفوق هذا وذاك، كنت أشعر بثقل أقدامى، وكأنها تأبى أن تصعد لمكان ليست فيه، لكن ظل الأصعب عندي هو دخول الشقة لعلمي أن أنفاسها مازالت تملأ المكان، وهنا لم أعد قويًا كما كان يشاع عنّى، بل صرت أضعف من الضعف، وبكيت طويلاً .

بعد هذه الفاجعة،كيف سوّلت لى نفسى أن أستطيع الحياة،ونصف ما أنا فيه وأكثر يعود لأفضال هذه السيدة، وإن كانت الحياة مدرسة فى حد ذاتها، وإن كنت قد طوّفت بمراحل كثيرة من التعلم فى جميع الأنحاء لكنّى أشهد لها أنها كانت مدرسة فى حد ذاتها. وربما لم أستطع فى حينها أن أقولها،بل وأزيد أنها كانت أمى وأغلى، وكانت الكنز الكبير من العطف الذى حرمني منه الجميع، الدفء وقت أن كانت دنيتى بكاملها تلفها

البرودة، وربما الثلوج، جعلتني أشعر وقت أن ماتت أنى يتيم لثالث مرة وبموتها فقدت اليد الطاهرة الوحيدة التى كانت ترتفع بالتضرع إلى الله أن أنجح فى هذه الحياة، ويوفقني فيها .

كانت كارثة فقدها امتدادًا طبيعيًا لكم الضياع الذى كنت أعيشه فى هذه الفترة من ضياع كامل للأحلام: الحلم فى الأستاذية فى تخصصي، الحلم الناصري بنكسة يونيو، كفري بالمرحلة بعد الاعتقال، تحطيم قناعاتي كاملة في منظومة الأهل والأقارب الذين - رغم حبهم - ولكنّى لم أشعر بهم من فرط سلبيتهم، وتلاشيهم من ذاكرتي ببعدهم الغير مبرر فى معظم الوقت.لكن تعلمت من هذه الكوارث أن أسعى دومًا إلى صياغة الحلم، وصياغة حلم بديل تحسبًا لأي عارض من شأنه إعاقة الحلم الأساسي، والذي تمخض عن رغبة عارمة فى الرحيل، فلا يوجد ما هو أبشع من الغربة فى داخل الوطن لذا كان ضروريًا التركيز الشديد؛ كي اختار الجهة التي أعتزم الرحيل لها؛ لأنني كنت واثقًا أنها رحلة - ربما - بلا عودة .

استهلكت وقتًا طويلاً، ربما عام، وأنا في ذاك الشرود والضياع، كانت هناك فرص عمل جاهزة وجيدة، ولكني لم أسعَ إليها .. كان الإحباط مدمرًا ومؤلمًا، كان «عمر» فى هذه الأثناء يشعر من خلال عميق خبرته بطبيعة نفسي، أن الحياة في مصر ربما أصبحت واقعًا مستحيلاً، وأنني لن أستطيع أن أسامح من حرمني أبسط حقوقي، بذل مجهودًا مضنيًا للحيلولة دون أن أتخذ هذا القرار الصعب، وأن الأحلام لم تنتهِ بعد، ولكن هيهات.

كان حزينًا جدًا لفشله فى إقناعى، وربما تألم للإصرار العجيب متّى وخصوصًا عندما قلت له صراحة: ليس لأنك هنا أستطيع أن أضحى

بوجودى في هذه البلد. لكن كنت مشوشًا ضائعًا ولا أستطيع تحديد الجهة التى سأتجه إليها، ولكن القدر ساق لى « طوبيليان » صديقي الأرمنى الذي تحدث معي فى صالة « بلياردو بالاس » عن رغبته بالرحيل واللحاق بشقيقته « أولجا » وتحدث معى أنها سبقته إلى فرنسا، ولست أدرى لماذا عرضت عليه ألمانيا، وتعللت أنها جاهزة لاستقبال المهاجرين، حيث أنها تتبنى خططًا اقتصادية عملاقة لإصلاح مرحلة ما بعد الحرب .

كان يمتلك وجهة نظر جيدة فى اختيار فرنسا، فلا توجد مشكلة للتأقلم مع الحياة فيها، على اعتبار أن الأرمن فى مصر كانت الفرنسية عندهم لغة حياة.

عدت إلى البيت وأنا شبه متجه إلى فحوى النصيحة التى وجهتها له، فألمانيا هي الجهة التي يتجه لها من هم في ظروفي، وكوني مهندسًا؛ فذلك أدعى إلى التفكير بشكل جيد فى السعي لإنجاز المهمة والرحيل إليها .

اختفيت فترة عن أنظار الأصدقاء وخصوصًا «عمر» ومبارك حسين.فيها تمكنت من استخراج كل الورقيات اللازمة للسفر،قررت التنازل عن ميراث أبى لعمى عبد الرءوف، وعمتي إنصاف؛ وكذلك ما ورثته عن أمى لأخوالي حيث أن الرحيل سيكون نهائيًا ولا حاجة لى للأرض.

زرت قريتنا زيارة سريعة،قمت بالتلميح أنى مسافر فى رحلة عمل قد تطول وعدت سريعًا إلى الإسكندرية بقصد توديع «عمر» ومبارك حسين تحديدًا.

كنت حريصًا جدًا على عدم البدء فى التلميح بالسفر وخصوصًا «عمر» على الرغم من أن موعد سفري كان بعد هذا اللقاء بيومين، رأيت أن أتعلل لهم بأن هذه الليلة هى الأخيرة لي معهم، حيث أنني مطالب بأن أغادر مصر من قريتنا،وأشهد أنه كان يومًا عصيبًا وخصوصًا على نفس «عمر»

الذى حزن وتألم كثيرًا جدًا، وكذلك «مبارك» وإن بدا أكثر انضباطًا من « عمر» .كنت متماسكًا، وأظن أن قرار السفر هو أسلم قرار أتخذه منذ فترة لكن كل ما كنت أخشاه فعلا أن أرى منهم أحدًا فيما تبقى من الساعات الـ ٤٨ لى فى الإسكندرية لأى سبب، وفى صبيحة اليوم التالي ذهبت لشراء بعض الحاجات التى تحتاجها حقيبة سفري ورتبتها و جلست فى مقهى « الإمبريال » يومها، ونظرت إلى منطقة محطة الرمل إجمالاً وبكيت بشدة ذهبت لتوديع منزل كوم الشقافة وأهله، وأخذت الحقيبة، حتى ظن أحد أبناء زوج الحاجة رتيبة - رحمها الله - أنى مسافر الآن، سلمته مفتاح الشقة وطلبت منه إما أن يتخلص من الكتب، أو أن تظل عنده على سبيل الأمانة. خرجت مسرعًا وألقيت نظرة طويلة على المنزل، ثم أبتلعنى تاكسي وتوجه بي إلى حيث تسكن «لورا» .

## حائط المبكى

حين تنصرف التفاصيل التي تملأ اليوم، ويُغلق الباب مع دقات ساعة حائط المبكى الليلي، وحين أدخل كعادة كل يوم مع النوم فى صراع من أجل البقاء، أجد الماضي شاخصًا عند باب الغرفة،يتحرك متجهًا إلى الفراش كشبح مخيف، أتذكر يومًا من أيام خريف هذه المدينة المُفعمة بالسحر سفينة ترسو في رصيف الميناء، يقف على ظهرها قاتل مأجور يحمل نفس ملامحي، ومقتول في آنٍ واحد، ينظر إلى سيدة تحمل ملامح نفس ذاك الملاح المغامر الذي شيّد هذه المدينة، تقف تودعه .

كنت راحلاً لوجهة أعرفها ولا تعرفني، كانت يدي ثقيلة، أريد أن أرفعها لكي أودعها وداعًا يليق، ولكن كنت كمن يغرغر، ومن ثم سيسلم الروح، تثاقل الجسد كله، أشفقت عليها من طول الوقت حتى ارتفع سُلم المسافرين، نظرت إليها وللمدينة التي كانت مثلها تبتعد شيئًا فشيئًا، صوتان كريهان: صراخ النساء وعويلهن يوم ماتت أمي، وصوت هذه السفينة الذي يسحب روحي من شاطئ هذه المدينة المتغلغلة فى نفسي .

تذكرت النهار الأخير في مدينتي، ضجيج الشارع وغبار الإسفلت وفنجان القهوة المُر، وبعض الفراغ،وجريدة أجنبية تحمل دليلا حاسمًا على الرفض أخبار حرب الاستنزاف لم تكن تشغلني كثيرًا، بعد الخامس من يونيو لم أعد أكترث كثيرًا بما يحدث على الأرض، شقق القمار وفلول الفتيات الأجنبيات والعجائز الباقين من الزمن الضائع و الرائع، وفحولة ريفيّ ينتحر كل ليلة في فراشٍ مختلف، وحاناتٍ تعرفني كزعيم تولى قيادة الصعاليك فى ثورة شاملة حدثت في غفلة من النظام .

تراثي على هذه الأرض المُبتعدة مؤلمٌ جدًا .
لم أكن أنتظر الشفقة، لكن أشفقت على نفسي كثيرًا، ظلمتني الظروف فى لحظة عمياء،كنت شيوعيًا على طريقتي الخاصة، كنت ذكيًا ربما، ولكن فى غياهب المعتقل، لعنتُ كل مسميات الذكاء التي يتحدثون عنها، خرجت وصديقي الوحيد الذى جاد به الدهر بعد سنوات الجحود والنكران واليتم،جلسنا نراجع كل شيء، إلا صداقتنا الرائعة،عشنا الكارثة بكل تفاصيلها،عشنا الضياع فى قمة تجلياته،تاريخنا معًا، تاريخ الأرصفة و الشوارع و البارات والبلياردو والمسارح وعلب الليل .
كنت أتعلل بالتعب و أنصرف فى هدوء الموتى، وأظل سائرًا من شارع (السلطان حسين ) حتى سور كلية الهندسة، هذا المبنى كان يستحق أن أعمره بآمالي،أروقته وقاعاته،أساتذته، كل التفاصيل حتى الصغير منها، شعرت إنني أفتقدها بعنف، نظرت من بين السياج الحديد، وحلمت من الوضع واقفًا، وكأنني أدير حلقة للدرس، أمنح الطلبة الكثير من عشقي لهذا العلم، أفيق لأجد دموعي المُحبطة قد بللت كل شيء، لولا أنني أنظر لدار للعلم،لظن من يراني فى هذا الليل إنني لص ينتظر الفرصة لأن يسرق كل شيء، أذهب للنوم فلا أنام، فاليوم خيمة السيرك وأنا لاعب(العُقلة) الذي يتأرجح من أعلى إلى أسفل، يباغتني القدر بواحدة من أعنف صدماته نزلت إلى الشارع المدجج بالصمت، بعد أن قضيت بعض الوقت فى بوهيميتي المُعتادة، شعرت ببعض الجوع من فرط ما شربته في هذه الأمسية ، التقي بـ"عمر" مخمورًا هو الآخر، عند ميدان محطة مصر،تتشابك يدانا؛ ويتشابك كل إحباطٍ نحمله،يصل قبلي، يودعني راثيًا لحالي، وأظل

صاعدًا إلى حيث بيت {رتيبة} تلك المرأة الرجل التي صنعت بتعاليمها أركانًا كثيرة من أسطورتي، ترحمني من تساؤلاتها عن تلك السهرات وهذا الغياب، وهذا الضياع، تريد من فرط حبها وتعاطفها أن تختلس بعضًا من الوقت لتنظر لي وتحدثني، تتعلل بالجوع، أقوم كأي ابن بار وآتيها بالطعام،أناديها فلا ترد، ظننت إنها تتدلل كتعبير رحيم عن غضبها، أناديها مجددًا فلا ترد، أتجه مندفعًا إلى غرفتها المُعطرة بالصلوات والدعاء، كانت غرفتها أطهر بقعة في عالمي، أقف مرتعدًا من جلال الموت الذي ارتسم على ملامحها المضيئة فى هذه اللحظات، أدرك الحقيقة، لم يكن متاحًا لها أن ترد وهى فى حضرة من هو أعظم من كل شيء، أصرخ : يا رب.

لقد كانت جائعة قبل لحظات قليلة، كيف ترسل من يقبض روحها جائعة؟ طعام الله سيكون مذاقه أكثر جمالا وروعة.

كانت التجربة مريرة ومن وقتها وللآن لا أطيق أن أتناول الطعام منفردًا فإن كان الموت فى الماضي حسبما فهمت حلاً هروبيًا من مشكلة ما، فالموت بعد "رتيبة" قد اكتسب معنى إضافيًا؛ الموت فى واحدٍ من معانيه؛ أن يأكل المرء منفردًا .

كنت أسأل نفسي . لماذا لم أتخلص من الحقيبة التي أتيت بها طفلاً إلى هنا؟ سبعة وعشرون عامًا الرحيل فيها جزء من تراثي، عقدت العزم وملأت الحقيبة ثانية، كان ضروريًا أن أراود غضبي وكراهيتي لجذوري، رحلت إلى قريتي؛ لا من أجل توديع الأحياء الذين كانوا وراء نفيي، بل أنا لستُ يتيما منفردًا تمامًا، فهناك قبران وبيت، تجمعت الأموال اللازمة لرحيلي، كانوا أكثر سخاءًا مما أتصور.

فكّر واحدٌ من أخوالي أن يصاحبني فى زيارة قبر أبي وأمي في ختام الزيارة، و رفضت، كنت أريد أن أأنس بهما وحدي، قرأت قرآنا كثيرًا على قبريهما؛ ربما لم أكن أمتلك اليقين الحاسم في فائدة ما أتلوه، لكن كنت أشعر براحة غريبة مع الاستمرار فى التلاوة، كان الوقت الذى استهلكته عند قبر أبي أكبر من ذاك الوقت الذى استهلكته عند قبر أمي، شعرت أن في هذا قمة العدل، كنت أتمتم: لقد عاش أبي فى صحبتي عامين، بينما هي ست سنوات ليس سهلاً على كل حال أن تُختزل السنوات الأربع فى مجرد ساعة إضافية أمنحها لأبي، لكنه أبي، قلتها وأنا أبكي الاثنين معًا .

بكيت كثيرًا، لكن عدت إلى بعض الهدوء، اعتليت منبر اللحظة وصرت أهتف في الفضاء البعيد والقبران بيني وبين المدى الفسيح.

أبي، ما سر هذا القتام؟ فلقد مُتَّ قبل أن أمارس معك بعضًا من عقوقي أي عدلٍ هذا الذي يطيح بأحلامي فى هاوية هذا الكابوس؟ كيف لي أن أمضي عامين كطفل ضائعٍ وتموت وأنت شديد الغضب عليّ هكذا ؟ تُراك تراقبني من أبراج الغيب وأنا أمارس هذه السقطات ؟ تُراك تستطيع الغضب وأنت في حضرة بارئك ؟ ما أشد ظلمك يا أبي !! بحق السماء كنت أحبك،وأتعاطف كثيرًا مع مشاعرك المرهفة التي أودت بحياتك،رغم إنني لم أتشرف بلقاؤك في ساحة الحياة المكتظة بالمسافرين.

أمي !! وعدتك أن أكره الريف والسُل، وألا أعود فلاحًا أبدًا، وعدتك وأنتِ متدثرة بكفنكِ الثلجيّ أن أنجح،وإلى الآن لم أذق للنجاح طعمًا،ربما عند الشاطئ الآخر من البحر سأجده، لن أنام، لن أترك لحظة من عمري دون أن أحققه أو أكاد، ولكنك أخلفتِ الوعد، قلت لي لن تتركيني لهم

قبّلت جبيني وأطبقت عيني على هذا الوعد، وفي الصباح رحلت إلى الله من في ملكوت الله يحتاج لأمٍ مثلك غيري؟ الملائكة لا يريدون الأمهات،هم مشغولون بالتسبيح والذكر والطواف السرمدي حول العرش، ربما قد عدتِ طفلة في الفردوس، أو فتاة رائعة الحسن رغم ما كان في ملامحك من لمسات المأساة الثقيلة، لكنك عدتِ لحقيقتك أجمل من أي امرأة في الدنيا، تجلسين مع أبي على الأرائك؛ أشعر بكما، وكأني أراكما، تتبادلان الأنخاب من خمرٍ لا يشبه ما نشربه هنا في الحانات الأرضية المفعمة بالدخان والجنون، أراكِ تشمين ملابسه السُندسية؛ تقتفي أثر عطرٍ غريبٍ لا تستخدميه عادة، وتقتفي أثر شعرة طويلة قد سكنت قميصه المزركش بالنعيم الأبدي، أمي هل في الفردوس أيضا تعبث بكم غيرة النساء ؟ مالكِ تصنعين هذا فى أبي؟ علمي إنه يحبك، فماذا يضير أبي إذا عانق حورية في طريق العودة إلى أريكتك المطرزة باللآلئ والنور؟

أمي اذكريني هناك، واحملي لأبي السلام، ابلغيه أنني كنت دائم السؤال عنه، قبّلي جبينه ويديه نيابة عنّي، ما أحوجني لأن أمارس البر معه، عسى أن تنفرج المغاليق التي لا تنتهي فى هذه الحياة، الله قريب، ولكنكِ صرتِ الآن أقرب إليه منّي، فما يمنعك أن تبتهلي له أن يوفقني ويتجاوز عنّي ؟ ربما قد هالوا التراب فوق جسدك الطاهر حقا، لكنكِ مازلتِ أمي فلا تنسي.

توقفت فجأة، ولم أشأ أن أعكر صفو سكان القبور بحديثي العائليّ المفعم بالتجاوز فوق الخطوط الحمراء، أنهما لا يستحقان غير البر، فتوقفت، فوجدت عيني تذرف دموعًا ربما أودت ببصري، داهمني الوقت فرحلت القطار كالقدر لا ينتظر من أحدٍ غالبًا،عدت لتفاصيل الرحيل الكبير في

أحضان تلك الفتاة التي كانت في رصيف الميناء، أيام قليلة، غارق في الثمالة، أرقص كالذبيح،ما أصعب{ التانجو} إذا كنّا نرقص ونحن مفعمون بالشجن!! لم أشأ أن أجرحها،كنت مستعدًا لأن أحبها بشرف،وهي بدورها أدركت أنه لا أمل،فمنحتني نفسها كشربة ماء يحتاجها ميت،تنفّسنا المتعة حتى انطفأت الشموع في هذه الأمسية الأخيرة. وحين دقت ساعة الرحيل وأتمَّمت كل شيء،ألقت العطر في كفيها في الصباح بعد أن انتهيت من تفاصيله لكي أخرج،مسحت بها وجهي الحليق، وظلت تبكي،وراحت تسأل ..

- ستذكرني؟

- هل ستعود يومًا وتبحث عنّي ؟

- هل كنّا جسدين التقيا ؟ أنا مصرية أكثر منك؟ يقيني الأرثوذكسي قد يتنازل ليقينك،الدين علاقة.. صدقني

- تبًا لكل من ارتدى ثياب الكهنة والواعظين،الله أكرم من شيخك ومن هذا الأب المتخم بالأموال وبالصلبان الذهبية في ساحة كنيستنا.

- نتزوج .. نعم نتزوج،اختار لي أنت اسمًا تحبه،ولا ترحل.

كنت أقف كالطود،وأنا أسمع هذه الكلمات،أعرف أن هذه العبارات من الممكن أن تقتلني، كنت متعاطفًا معها أشد التعاطف،أشعر أنني محاصر بعاطفة امرأة محبة،من الصعب الانفلات منها،تعاملت مع نساء كثيرات،لكنها حتمًا تختلف،ليست مثلهن،هي تحبني حقًا،لكنني مذبوحٌ من الوريد للوريد،رحيلي ليس رحيلاً عاديًا،ولكنه رحيل من أجواء القتام الذي يغلف مسيرتي هنا،مؤكد إنها تعلم،هنالك هزمتُ صمتي وقلت بصوت مفعم بالحزن:

- (لورا) ربما تتعدد الدوائر وتتشابك هنا وهناك،لكنكِ على الدوام مركز الدائرة،أبدأ من عندك وانتهي عندك.

تعرفين كيف هو وفائي،لكن من العسير أن أعدك بالعودة إلى هنا،ربما خارج هذه الأرض،فلقد عاهدت نفسي وبعضًا من أصدقائي ألا أُدفن فيها،ليس لي أهل غيرك،ولا ينافسك في محبتي إلا "عمر بشير"،تعرفينه بالطبع،ساعديني لأن أُولد من جديد،وتابعي أخباري. أرجوكِ.

خرجت معها في اتجاه الميناء في سيارة أجرة،كنت احتاط لنفسي أن أنظر من نافذتها،كي لا أرى أي معالم من ذكرياتي الحاضرة في هذه اللحظة،للمرة الأولى التي أشعر فيها إنني أبكي من داخلي،كنت منضبطًا،لكنني أرتعش بعنف،تهمة التخلي،ومغبة المجهول الذي ينتظرني خلف هذا البحر،هي أيضا بدت منضبطة،لكنها بين الحين والآخر تعطي إذنًا لدمعة تخرج في إثر دمعة،كنت أراها في مرآة السيارة،صمت طويل،كانت مباراة في قوة التحمل على ما يبدو،لكن وأنا بصدد الصعود إلى ظهر الباخرة.

تعانقنا عناقًا ظللت بطول عمري أبحث عن امرأة تمنحني هذا الإحساس الذي منحته له هذه المرأة بعناقها في هذه اللحظات،ثم وضعت رأسها فى كتفي وبكت،حتى انهارت.توسلت لها أن تذهب، فبقاؤها واقفة سيطعنني حتمًا،لكنها أصرت بضراوة على أن تبقى إلى حين الإبحار،كان ثقيلاً جدًا وقع هذا المشهد،هي والإسكندرية يبتعدان في قسوة،ما كنت لأتحمل هذا الطعن الذي تمارسه المسافات التي تبتعد شيئًا فشيئًا،فاختفيت في الداخل،وأسدلت ستارة مشهدٍ استمر فوق خشبة مسرح لا يعرض إلا نصوص البكائيات العبثية طيلة سبعة وعشرين عامًا .

طفت كثيرًا بدروب العمر،وعشت الحياة كما قُدِّر له أن أعيشها،دخلت بملء إرادتي في تروس الماكينة الباحثة عن تحقيق أحلامي،لم أنسها،ظلت ذاكرتي مسكونة بها سنوات وسنوات،بحثت عنها كثيرًا،رحلت لبلدها أخيرًا،ولكنها رحلت فيما بعد لجهة غير معلومة،دائمًا أحن لأن أنظر إليها،وخصوصًا عندما تدق التاسعة في ساعة حائط المبكى الليلي،حين ألتقي بالوحدة وجهًا لوجه؛بعد يوم تبخرت منه كل أطياف البشر.

# ولولا أن أهلك أخرجوني

كان يجب أن أصدق أن هذه السفينة تتجه بي بعيدًا عن الإسكندرية،لم أتخيّل هذا،ولكنها الحقيقة الواضحة،حاولت أن أبدو قويًا،ولكن هيهات،فما كان متّى سوى أن أدرت ظهري لمعالمها التي تبتعد شيئًا فشيئًا حتى لا أنهار كليًا،ولما عجزت صعدت إلى غرفتي بسرعة،محاولا أن أتناسى كل القصة وأبدأ من جديد قصة أخرى.

كان يومًا فاصلاً من أيام الخريف،كانت حياتي كلها تبدو أمامي كعرض مسرحي ثرى بالهزل،لكنه مغرق في ميلودراما إنسانية،غاية التعقيد.المأساة فيها هدف لا يغيب عن قصدية المؤلف،ولا تبدو فى كثير من تفاصيلها سوى ملحمة سريالية كاملة،يختلط فيها الحلم بالواقع،اليقظة المستنيرة بالهذيان العارم،ويبدو كما قال رامبو :عندما استيقظت كان العالم فى الظهيرة.

جلست طويلاً فى غرفتي بالباخرة،فكرت طويلاً في المستقبل وحاولت التسرية عن نفسي،استعرض المواقف الجميلة فقط التى مررت بها،والغريب حتى المواقف الجميلة الممتلئة بالسرور النسبي،كانت جالبة للدموع التي تشبه يتمي .

يومان فى عرض البحر،تجاوزنا جزيرة» كريت»حتى وصلت مرسيليا،لم يساورني هاجس البقاء فى فرنسا،كنت أعتقد أن التردد ربما يضر بالمشروع كله،هنا تدَّخل العناد المعروف عنّى وحاولت التجاوز عن مجرد التفكير لأن أظل في فرنسا،تذكرت أن رحلة الباخرة عمومًا ما كانت إلا للترفيه

حتى الوصول إلى المحطة النهائية.. ألمانيا بالطبع،كان لزاما علىّ أن أتجه إلى «مونبلييه» ومن ثم ركوب القطار إلى ألمانيا مباشرة،لكن القدر تخلى عنّى فى هذه الرغبة،حيث ظل القطار الذى يتسع لرغبتى البسيطة فى الوصول إلى ألمانيا سريعًا .. حتميا أن يمرّ على لوكسمبورج،قبل المحطة النهائية في فرانكفورت..

لم يكن بُدًا من القبول بالأمر الواقع،دفعت ٢٠ فرنكًا إضافية من وراء هذا التغيير القدري.

توقف القطار قرب» ميتز»قرابة الحدود الألمانية،تذكرت أن «طوبيليان»كان ينوى على هذه الجهة من فرنسا،لم أفكر في البقاء والبحث عنه حتى لا تتغير الخطة،أو أن أمارس حمقي،وأظل بجوار «أولجا» في قصة حب مصطنعة أقتل بها ضياعي وملل*ي* .

ربما لم أرَ لكسمبورج بوضوح،وإن تمكنت من هذا فيما بعد،كل ما أذكره متابعة شرطة القطار للتأشيرة التى حصلت عليها من مصر،كانوا متسامحين جدًا،ونظراتهم تحمل نظرة إجلال لمصريتي في الحقيقة،وبدوا لي شبه مسرورين أن شاهدوا مواطنًا من بناة الأهرام !

عدت لموقعي فى القطار ورحت فى نوبة نوم كنت أحتاجه.

لكن كل البلاد التي مرّ عليها القطار كانت جميلة ورائعة، عبر القطار على مساحات شاسعة من الخضرة والتلال والجبال الرائعة،تذكرت ذلك المشهد الطفولي الذي شاهدته من نافذة القطار الذى حملني من قريتنا إلى الإسكندرية، والتي كانت كل الأشياء خارجه تجرى بسرعة، لكن في قطاري هذا، كانت الأشياء تجرى بإيقاع أكثر سرعة، حتى انتهى بنا فى فرانكفورت

في طقس خريفي لا يخلو من برودة.
كنت في حالة من الجوع الرهيب،ولم تكن حقيبتي ممتلئة سوى بالقليل من الملابس لأكون أكثر خفة،معي حفنة لا بأس بها من الدولارات،دخلت لأحد البارات،وشربت قهوة،وبعض قطع العجائن المخبوزة،كانت مشكلتي الرئيسية فى الأيام الأولى،زهد الألمان في تعاطى لغة غير لغتهم،كان الحظ حليفي عندما التقيت شابًا فلسطينيًا من عرب ٤٨ اسمه عصام،اصطحبني بعد انتهاء عمله وجلس معي،اعتقد أنى بصدد طلب مساعدة أو ما شابه.
كم المآسى التى عاشها الشعب العربى فى فلسطين خلق لديهم كمًا كبيرًا من التوجس.تكلمت معه عن الوضع العام للعرب في ألمانيا والعديد من الأمور،في نهاية المطاف طلبت منه الإجابة عن سؤال :من تعتقدها ستكون أفضل لي«جيلزن كيرشن» أم «كولون»لتخصصي، كوني مهندسًا ؟
تعجب فى البداية،ولكن بادرته بأنني عندما جئت إلى هنا،كنت أعرف أن معظم الكيانات الصناعية الكبرى فى ألمانيا تكمن فى الشمال؛لأن تخصصي ربما ينفع فى هذا الاتجاه، كنت أتوقع نصيحة حاقدة فى الواقع تهدف لتضليلي،ولكنّه كان صادقًا جدًا عندما قال : جيلزن كيرشن.
فمعظم الجاليات العربية على قلتها فى هذه الفترة،باستثناء التجمع التركى الكبير، ما كانت لتعمل فى تخصصاتها العلمية التى حصلت عليها فى بلادها أقمت ليلة فى فندق متواضع، وأخرجت مجموعة أوراق ومستندات تمكنت من ترجمتها فى مصر،وخصوصًا شهادة البكالوريوس، وشهادة نجاح مشروع التخرج على اعتبار أن الجهة التالية، الصعود حيث «جيلزن كيرشن»
لكن في صبيحة اليوم التالى قررت تأجيل السفر إلى هناك وعكفت على

قراءة كتابين اصطحبتهما من مصر في مجال التخصص، وجلست أمتحن نفسى فيما ورد فيهما من معلومات متخصصة، وخصوصًا أن عندي فكرة جاهزة عن عصبية الألمان، وعدم ثقتهم فى الآخر ولاسيما فى المجال التقني. كنت متأكدًا أن كل حديث سأقوله لن يجدي معهم، بل على الأرجح سيكون هناك اختبار، وبالفعل قد كان، ذهبت إلى هناك وتوصلت إلى مصنع متخصص بدرفلة الحديد.التقيت بالرجل المسئول عن التوظيف، كان كريمًا معى فلم تباغته إنجليزيتي،تكلم معي عن العمل الذى أجيده،وخبراتي،وكنت صريحًا معه، قلت: إن معظم خبراتي نظرية، مؤكد ستكتمل هنا، وأن العائد المادي ولاسيما الآن ليس هدفًا، تعجب في البداية، لكنه كان يحمل ملامح تنذر بالرضا.

فما كان منه سوى إرسالى للمُمتحن، فلعلّني أنفع .

ذهبت إلى الممتحن وتكلم عن بعض الأمور الخاصة بميكانيكا الطاقة ودورات الوقود،وكيفية التعامل مع مكونات فحم الكوك الخاصة باستخلاص خام الحديد،كان الرجل مندهشًا من طريقة تعاملي مع الأسئلة التى يعرضها علىّ،ورغم أن إجاباتي كلها بالإنجليزية،التي كنت أجيدها بشكل معقول،لكنه أخذ يحملق فى ملامحي بشكل مستفز،جعلني أشك أنه لا يكترث بما أقوله،وربما فقط يستهلك الوقت كي لا يجرح مشاعري،لكنه قطع السكوت وقال جملة لن أنساها وما كنت أفضل أن أسمعها :يبدو أنك تحب المجال،فكيف تتركون بلادكم بهذه السهولة .. شاب محب للتخصص،أليس من الأجدى أن تبدأ مع بلدك،لأنها تبدأ أيضًا ؟

قلت: إن مصر قد بدأت حقًا، ولكنّى لم ألحق بها حين بدأت، ومصر الآن

تجيد اختيار من يبدأ معها بعناية.
ضحكنا معًا، وتأكد من ملامحي، أن ما أقوله إجابة لا تخلو من سخرية وتهكم شديدين، ولكنه من يومها صار صديقًا مقربًا حتى رحلت من جيلزن كيرشن، كان السيد «ديترتش كوبل»الصديق والدليل الذي رسم معي خطة الحياة فى هذه البلاد، التي يُفهم بشكل خاطئ احترامها للإنسان، فأوربا لا تحترم الإنسان فى المطلق، ولكنها تحترم الإنسان العامل المميز الماهر،وصاحب الخبرات التى تبدو فى كثير من الأحيان نادرة، سواء في التنظير أو التطبيق .
كان عملى فى هذا المصنع شديد التأثير والخطورة،فالتحكم الحراري،ومقاييس الطاقة- رغم أهميته- لم يكن هو المحك فى وخصوصًا في مجالات الحديد والصلب، والصناعات الثقيلة عمومًا،لكن ظلت مواهبي الرئيسية مكمنها وحسب مشروع التخرج الذى تقدمت به،تصب في مغايرة تصاميم ومقايسات دورات الوقود الكلاسيكية، وإعادة استخدامها من خلال تقنيات غير تقليدية ومصادر مختلفة،وربما هذا الذي جعل الناس مع مرور الوقت تحتفل بوجودي، وعلى اعتبار أن ألمانيا ليست دولة نفطية بقدر ما هى دولة تعتمد على الفحم والغاز الطبيعي .
مع الوقت عرف السيد» كوبل»أننى كنت من المتفوقين فى مجال تخصصي نظريًا،وعرف أن من جملة طموحاتي فى فترة التواجد فى مصر أن أكون أستاذًا فى هندسة الوقود،وكان لي هدف من دراستي فى وقتها أن أعيد استغلال مصادر الطاقة التى تنتج عن عمليات الاحتراق الهائلة التى تنبعث من مصانع الصلب،وكان لزامًا أن يفكر معى بشكل أكثر إيجابية

فى بلوّرة هذه الأفكار إلى منحى أكاديمي، وخصوصًا أن جامعة الإسكندرية معتمدة في نتائجها عند مضاهاتها بالشهادات المعادلة فى ألمانيا،لكن يجب قبل الانخراط فى هذا الحصول على دبلومة تعدل ما كان يُعرف فى مصر بتمهيدي الماجستير،وبالتالي نستطيع توفيق الوضع من خلال ما سأسعى إلى تنظيره،لكن ظلت لغة العلم والدرس خطين متوازيين لمعاناة لغتين لا يلتقيان أبدًا.

إن مواجهة مشكلة تعلم لغة ما،لا يتم إلا من خلال امرأة تتحدث هذه اللغة،وان التشتت الواضح بين الألمانية والإنجليزية فى مجتمع لا يحتفل كثيرًا إلا بلغته .. أمر بالغ الصعوبة،وللمرة الأولى في حياتي،حيث كان النساء دائمًا كالفراشات تحوم من حولنا،أجدني أحاول البحث عن سيدة منتقاة لإقامة علاقة ود معها فى بلد لم يتبقَ فيها سوى شهرين ليكون قد مرّ علىّ فيها العام الأول .

لم أكن مرتاحًا للغة الألمانية، أبجدية مُجهدة، ونطق يحتاج إلى مجهود، لكن الاستمرار والممارسة هما السبيل الوحيد لكسب الجولة الأولى مع هذه اللغة،مع شراء جرائد ألمانية لرؤية اللغة بشكل مستمر،ولست أدرى؛لماذا أشعر عند الرغبة فى النساء بشيطان متجسد واسع الحيلة لتيسير الأمور،التقيت بـ «كاترينا» في أحد المطاعم، امرأة تجاوزت سن اليأس بقليل، ولكنها محتفظة ببعض من جمالها وأنوثتها وكثير من الأمل.. دبرت مدخلاً للحديث معها حيث أنها خرجت معى تقريبًا من المطعم، وسألتها هل هى من سكان الحى القدامى، وهل يوجد سكن مناسب ورخيص حيث أنى مهاجر، وسألتها النصيحة على كل حال ؟؟

كان حديثًا طويلاً نسبيًا،لكن الحديث انتهى لنتائج لم أكن لأحلم بها ولا يحلم بها أكثر المتفائلين.. حيث قالت:أريد أن أجرب معك تجربة جديدة حيث أنها من الممكن أن تسمح بإقامتي عندها نظير أن نقتسم القيمة الإيجارية لسكنها،وكذلك الجهد المبذول فى أعمال تنظيف البيت. لم أرد أن أبدى موافقة سريعة تغريها بسوء طويتي، ولكنّى تصنّعت الشرود للحظات، ثم قلت وهو كذلك،فكان حتميًا أن أصل إلى مسكنها حيث أعرف البيت وفى الغد أحضر حاجياتي ومتعلقاتى من الفندق الشديد التواضع الذى كنت أسكن فيه.

افترقنا وأخذت رقم هاتفها تحسبًا لأى عارض من عدم تجميع العنوان فى ذاكرتي رغم تركيزي الشديد،وعدت إلى الفندق أسأل نفسى .. ماذا فى يجعل النساء يتعاطفن معى إلى هذه الدرجة رغم أنى لست مفرطًا فى الوسامة ؟ وماذا فى ملامحي تحديدًا من معنى المأساة يجعلهن هكذا فى تعاملهن المفرط فى الإنسانية ؟ قلت فى نفسى وأنا على باب الفندق بلهجة شديدة التهكم:ربما الجاذبية أيها الفلاح الغبي .

مكثت معها قرابة عامين،كنّا كأصدقاء فعلا وجيران داخل سكن واحد،وإن كنت بذلت مجهودًا خرافيًا من دواعي الرغبة الحريصة على عدم الإساءة أو التجاوز، ولو ببعض التصرفات التى تبدو منّى غير مسئولة،ورغم كم التلميحات الأنثوية التى مورست ضدي،كنت أحاول جاهدًا أن أبدو زاهدًا فى إقامة علاقة حميمة معها، هي بدورها فهمت أننى رجل شرقي ملتزم !! ولكننى من دافع المكر كنت أحاول أن أجعلها تفهم أن هذه العلاقة إن تمت فهي خدمة أسديها لها كأنثى !! وليست هدفًا أسعى إليه،لأضفى على

علاقة الجوار شيئًا من الاحترام، رغم أنني في هذه الظروف لا أتوانى عن ممارسة حمقى المعتاد.وبقدرة هائلة على تصنّع العشق الجارف كان»عمر»يراسلنى رسائل متقطعة،تتوقف على العنوان الذى أرسله له،حيث لم أنعم بالاستقرار النسبي طوال السنة الأولى، ولقد كانت رسائله شديدة الألم على نفسي، رغم كم السعادة التى كنت أشعر بها عند القراءة لما جاء فيها من أشياء، لكنها كانت تذكرة لأحداث مؤلمة على كلينا.كنت شبه منفصل تمامًا عن مصر وعن أخبارها إلا منه ومن رسائله. ومتابعة عبد الناصر لم تكن لتشغلني فى ذلك الوقت على الأقل، وخصوصًا أنني كنت كطفل غاضب من أبيه، ولكنه في كل الأحوال يحبه.

كان الحديث محمومًا عن ما يُسمى بأيلول الأسود، كنت شديد الدهشة لكم التطورات الغريبة التي تشهدها المنطقة، وخصوصًا أن الجالية العربية والفلسطينية تحديدًا مشغولة بمتابعة الموقف عن كثب، كانت توابع هذا الموقف مؤثرة وضاغطة ومؤلمة فعلاً، وللمرة الخمسين يُراق الدم العربى بيد عربية،حديث ذو شجون، لكنها المهزلة الأبدية، لكن القدر أبى بعنف أن ينتهي سبتمبر بدون كارثة، ورغم كم المعطيات التى تخلق خلافًا مع مرحلة معينة من تاريخ عبد الناصر.. يظل ذلك الخبر الذى نزل علينا نحن العرب فى ألمانيا، وفاة الرجل. كأسوأ خبر سمعته فى حياتي.

لم يكن خبرًا عاديًا، كنت أمتلك دموعًا مؤجلة من ٥ يونيو على ظني،جلست وحيدًا على سُلم البيت، وأخذت أنظر في اللاشيء، حاولت أن أبدو متماسكًا ولو قليلاً، ولست أدرى لماذا حاولت في الخيالات التي سيطرت على ذهني ساعتها أن أسأله .. هل كان جديرًا بك أن تموت الآن؟ وأي عدالة تلك التى

تتركك تموت مهزومًا فى حرب كان انتصارك فيها - أنت تحديدًا - سيكون بطعم مختلف؟ وعندما دخلني سؤال كنت أظنه مرعبًا فعلاً .. كيف يتسنى لمصر أن تنام هذه الليلة ؟ هنا بكيت ولم أتوقف.

موت الرجل أضاف سببًا جديدًا لجملة الأسباب التى جعلت من ألمانيا منفاي الأختيارى، وأن علاقتي بمصر لم تعد سوى أوراق ترتدي ثوب الرسائل فيما بيني وبين«عمر بشير» وكرغبة منّى أن يظل تاريخي فى مصر متجددًا فى ذاكرتي وليس نهبا للنسيان.عدت لحياتي المعتادة وهدفي العنيد، وطموحي لأشياء لم أكن قادرًا على تحديدها.

## بين الطموح والجنوح شعرة، ربما حان قطعها

صناعة الحديد والصلب الألمانية تتطلب قدرات هائلة من مخزون كبير من الفحم الحجري،والغاز الطبيعي، ورغم توفرهما في الساحة الألمانية،لكن في دولة لا تقنع إلا بالتطور، كان لزامًا عليها البحث عن بدائل أخرى أكثر أمنًا وأقل كلفة.

كان الحديث عن الوقود الذرى حديثًا محفوفًا بالمخاطر، فالسياسة وتوجهاتها تتدخل بقوة فى صياغة هذه الملفات،والمعروف أن الوقود الذرى.. هو الوقود الذي يطلق الحرارة نتيجة تحول الكتلة إلى طاقة، إما بواسطة الانشطار عن طريق قذف النيترونات بفعل المواد المشعة كـ اليورانيوم والبلوتونيوم، ويسمى عندئذ بالوقود الانشطاري، وبعض أنواع الوقود الذري تستطيع الانشطار مباشرة الثوريوم مثلاً، وهذه الأنواع من الوقود الذرى تدعى بالوقود الخصب .

كان التعامل مع مصطلح تخصيب اليورانيوم رجس من عمل الشيطان وليس مسموحًا إلا لدول بعينها، كان هاجس الحصول على هذه الطاقة وكيفية تطويع النظريات لخدمة هذا الهدف هو كل ما يشغلني،وخصوصًا أن النجاح فيه، وإحراز تقدم ملموس، خطوة على الطريق الصحيح، به نستطيع مضاعفة الطاقة المتاحة أضعاف مضاعفة،ومؤكد أكثر وفرًا وأمانًا وتجنبا للغط دولى تحركه السياسة بشكل يضغط ألمانيا فى مرحلة ما بعد الحرب .

تحدثت مع السيد «كوبل» عن هذا التوجه، وكان لزامًا أن أعرض خطة عمل من خلالها يتبلوّر الموضوع أمام جهات الاختصاص،كنت أعرف أن موضوع كهذا إن نجحت فيه سيحقق شيئًا ذا قيمة ومردودًا ماديًا وأدبيًا كبيرًا،ولكن هيهات أن تكون هذه هى أحلامي، وأذكر أني جلست وحيدًا أفكر فى الموضوع،وقلت:أنا موظف بالمصنع،وصياغة فكرة مجنونة كهذه حتى وإن نجحت، فلن تجدي معي في صناعة مجد أشعر معه بوجودي بل وسوف أُترك للقدر؛ أنجح فانا معهم، وإن فشلت فكأن شيئًا لم يكن .
قمت بتجريب الذكاء الريفي،والمكر في التعامل مع هذا الموضوع،وقلت لا يمكن أن أترك للقدريات،وكفى ما حدث فى التجربة السابقة فى مصر،انتهي أولا من الدبلومة،وعلى نفس الدرجة أسير فى بحث هذه الفكرة التي منها نستطيع الحصول على الطاقة بعيدًا عن سفسطات السياسة ومخاطرها،فليست هذه الفكرة على الأقل من جهتى مجرد فكرة، بل هي رسالة ماجستير أتقدم بها مستقبلاً، وبذلك أضمن الدعم المالي اللازم للأبحاث التى أقوم بها .
طابت نفسى لهذا التوجه، أدركت بوضوح أن النوم فكرة غير مطلوبة الآن،وأن كم اليقظة المستمرة،سيجعلني في المستقبل القريب أنام ملء جفوني.فقدت الكثير من وزنى وقدرتي الصحية،كنت أشعر بإرهاق غريب،ولكنّى كنت دائمًا ما ألمح شبح أمى وكأنها تتوسل لى أن أنجح،فأزداد ضراوة على العمل.
تقدمت للامتحان ونجحت، وكان أكثر المبتهجين السيد «كوبل» و «كاترينا» التي فتحت زجاجة شمبانيا ضخمة فى هذا اليوم، وقالت في

دعابة جملة غريبة، كانت تحمل شيئًا من التجريح، ولكنها كانت صادقة ومن القلب:اليوم فقط اكتشفت أنى أعيش مع شخص محترم، واعتذرت لي على سوء ظنها فى استغلال الكهرباء أثناء المذاكرة المسائية فى أشياء كانت تعتقد أنها تافهة.

كان دور السيد «كوبل» فى حياتي عظيمًا، فحتى وأنا أرحل من «جيلزن كيرشن» متوجهًا إلى بافاريا، نصحني باختيار جامعة (كوبورج) وكانت جامعة جديدة ومازالت تؤسس نفسها، وبسؤاله عن هذا الاختيار قال: إنه من الجيد أن تبدأ مع من يبدأون؛ لأن هذا أدعى لك أن تكون مؤسسًا في مجالك في حال نجاحك. لكن في الحقيقة كنت ممتنًا له كضامن لى فى هذا البلد، ويكفى أنني رحلت إلى «بافاريا» بجواب توصية منه لأحد أصدقائه للعمل فى مصنعه براتب ربما يفوق ما كنت أحصل عليه فى «جيلزن كيرشن» مع مراعاة صديقه السيد « كيمهوف» لحقيقة أننى طالب علم .

لم أنس «كاترينا» الطيبة التي كانت شريكة السكن والجارة اللدود،ولكم كانت تقوم بإعفائى من مجهود التنظيف المنزلي فى فترات الدرس والتحصيل اختصرت الكثير من الوقت لتتحسن ألمانيتي بشكل جيد؛ كان وداعها وداعًا جميلاً، وإن كان مختلفًا عن وداع «لورا» من ثلاث سنوات خلت حددت هدفي،ومن خلال خطة متكاملة للبحث،فكل مواهبي الطاقة والوقود والاستمرار على الفحم والغاز رغم أهميتهما فى مجال الحديد والصلب لكن كنت أريد إعادة صياغة هذه الطاقة لخدمة هدف أكبر وهو إضافة مزيد من الطاقة،وهذا كان الجديد تمامًا، حيث تظل الطاقة مواد مُهدرة لخدمة هدف بسيط، لكن أن تستخدم الطاقة لتخليق طاقة أكبر

قوة وقدرة، فهذا هو الحلم الذى كان يراودني. عرضت الفكرة على هيئة الإشراف، تعجبوا منها،وطلبوا منّى توضيحها فى صورة أكثر تفصيلاً.كنت أحلم أن أستفيد من كم الحرارة الهائلة التى تستخدمها مصانع الحديد والصلب فى صهر الحديد وتخليصه من شوائبه،بهدف الحصول من هذا الانبعاث الحرارى الضخم على طاقة جبارة وهائلة تقترب من كونها طاقة نووية رغم اختلافها كليًا عن طبيعة الأخيرة، والتي تأتى بالانشطار،ومعتمدة كليًا على تخصيب اليورانيوم.

كانت معطيات النظرية الحلم،أن نحصل على الوقود الذرى بواسطة الانصهار اعتمادًا على الديوتيريوم والتريتيتيوم (وهي من نظائر الهيدروجين) وخصوصًا أن الطاقة المستخدمة فى تصنيع الحديد هائلة للدرجة التى تساعد على تحقيق معدلات انصهار عالية،هذا بالإضافة إلى وجود الديوتيريوم والتريتيتيوم على الساحة الألمانية، وهنا كما فى تخصيب اليورانيوم،تتحول الكتلة إلى طاقة،تحول يعطي الحرارة، ولكن بكميات هائلة. وبعيدًا عن أى ملفات من شأنها إعاقة الفكرة لاعتبارات سياسية أو غيرها. حيث تظل هذه الطريقة التى أحلم بها بعيدة كل البعد عن مرحلة الوثوب لتصنيع ما يمكن تسميته أسلحة تدميرية .

رسمت خطة البحث،وحرصت فيها على ألا يبدو ما أفكر فيه نزقًا مضحكًا،وخصوصًا أن الفكرة مجنونة فعلاً وجديدة.كنت أعتمد فيها على كيان موجود بالفعل كصناعة قائمة،الحديد والصلب،قمت بشرح خطتي للهيئة المشرفة،وتعجبوا منها،واعتبروها فكرة مغامرة،حاولوا مساعدتي بشكل كبير فى تحقيقها وخصوصًا أن الوصول إلى معايير النسب الخاصة بتحويل

القدرة إلى قدرة فعلية إضافية لهذه الطاقة المنبعثة من أفران مصانع الحديد والصلب تحتاج إلى مجهود لا يخلو من خطورة.كنت أرى في حلمي روح المقامرة التي إن فشلت لن أخسر معها الكثير من الأشياء، لكن أعتقد أن ثمة قوى خفية كانت تقف خلفي في هذا المضمار،دعاء المخلصين لي: أمي وأمي الثانية في حياتي» رتيبة «وفوقهم إرادة الله التي شاءت أن أستمر في هذا الموضوع رغم غرابة الفكرة،وصعوبة ترجمتها.

مرّ الوقت ومن خلال الخطوات المتتالية من أجل الوصول لتصميم دورة وقود إضافية تساعد في تصنيع الحديد وتحقيق الانصهار المطلوب للمركبات الخاصة بتوليد طاقة أخرى أضافية من خلال انصهارها (الديوتيريوم والتريتيتيوم) وخصوصًا أن الخطوات كانت تمر من نجاح إلى نجاح؛بدأت أرى في الأفق روح جديدة في التعامل من الجامعة ممثلة في لجنة الأشراف والأساتذة الذين كانوا يضحكون من الفكرة وقت أن طرحتها،وكنت أتعرض للأسئلة التي تريد متابعة إلى أين وصل بي الموضوع، في هذه الأثناء تحدث معي الدكتور «مويلر» عن موضوع آخر بعيد كل البعد عن العلم والدرس،يخص حياتي كلها، ففي عشاء خاص في بيته، تحدث معي عن مستقبلي في هذه البلاد،وكيف ستكون أيامي القادمة في ظل نجاح متوقع لهذا الهدف الذي سيفيد قطاعات كبيرة من الصناعات الأخرى، إضافة إلى الحديد والصلب،وأني في انتظار ملمح جديد لكينونتي ليس كمهاجر،وأن عليّ أن أتغيّر على حسب ما سأقدمه من فكرة هي بالضرورة مفيدة.

أجمل صفات الألمان أنهم يحبون بلادهم حد العشق،ويغارون عليه وعلى تقدمه،ولكنّي أعربت عن عدم فهمي لما يشير له الدكتور «مويلر» فبادرني

بقوله إننا نحبك موجود معنا،فقلت أنا موجود فعلا،ولكنه قال :لا،بل نريدك موجود معنا كمواطن،وليس كمهاجر. كانت هذه هي المرة الأولى التى أجد منحى جديدًا لمستقبلي،والحقيقة لم أكن أفكر فى هذه اللحظة تفكير يتجه بى إلى محاولة تجنيسي، لكنها بدت لي فكرة جيدة،كنت أستشعر أنها رغبة منهم فى ذلك،لم أحزن أو يساورنى الشك فى نواياهم، ولكنّى أدركت أنني بصدد النجاح في عملي، وأن هذا النجاح المتوقع بدرجة كبيرة هو ما دفع بهم لعرض هذه الفكرة على لسان «مويلر»، فما كان منّى سوى أن طلبت أن أفكر فى العرض، وبالتأكيد سوف أوافيه بالرد فى القريب .

كنت أمتلك الرد فى حينه، فقط كنت أريد التأكد من جدية العرض،واختبار إصرارهم عليه،مرّ الوقت وأنا في دائرة الوصول إلى هدفي،قمت بتجارب ميدانية كثيرة حتى توصلت إلى التصوّر النهائي لفكرتي،أقمت بعض الدورات المصغرة فى مصانع الشمال الألماني،وأتت بنتائج إيجابية فعلاً،وفى ليلة لا تنسى كنت فيها بطلاً لعرض مسرحي، أنا فيه النجم الوحيد،قمت بشرح الفكرة كلها بترتيب أذهل الجميع.وأرفقت مع الشرح تقارير اللجان التى تابعت كمية الطاقة التى حصلنا عليها كنماذج مصغرة عند استخدام الطاقة المستخدمة فى تصنيع الحديد فى صهر المواد؛كي ننتج طاقة هي بالضرورة أكثر ضخامة من كل مستويات الطاقة الأخرى، وأكثر أمنا وتوفيرًا من نظائرها .

بعدها مباشرة كنت أتلقى التهنئة من الجميع،ولكنّى كنت أنظر إلى الخطوة التالية، فلن أقنع بمجرد ماجستير فى هذا التخصص، لا بد من دكتوراه.

كنت أسمع هذا الهمس في نفسي، حتى أنفرد بي « مويلر»

وقال لى: نحن فى أغلب الوقت لا نستجدي أحدًا أن يكون ألمانيا،ولكنك يجب أن تكون.تقدمت للحصول عليها، وأذكر يوم أن ذهبت للقسم المعروف فى هذه الظروف أن كنت سعيدًا، ولكنها سعادة مشطورة،شعرت أن مصريتي كانت كالرداء الذى خلعته عنى، وخصوصًا عندما خُيرت بين الاحتفاظ بها،ولكني رفضت، ليس جحودًا بمصر،ولكن لأن الرغبة فى نفسى ساعتها.كانت مستقبلاً بلا مصر .

كنت أعرف أن الماجستير خطوة على الطريق، ولكنها طبقًا للعرف السائد حينئذ ليست سوى بكالوريوس هندسة متطوّر في بلد لا تقنع به،مثلما الحال فى بلادنا،بل إنه مرحلة قد تبدو أرقى، وليست خطوة واسعة فى سبيل الهدف الكبير،ولكنها واقع ملموس تم إضافته على الأرض،ولولا جدّة الموضوع،لكانت خطوة لا تستلزم كم العناء طيلة سنتين مابين بافاريا حيث الجامعة،و «جيلزن كيرشن» حيث تصميم التجارب واختبار البدائل بين الحين والآخر،فى معاناة رهيبة وكبيرة ومؤثرة .

كان نجاحًا بطعم الغصة،لو تحقق فى مصر لحيزت لى الدنيا بحذافيرها،ولو أن من ماتوا معي،لكان أكثر بهاءًا، لكن أهديته إلى روحيهما، أمي بالولادة وأمي بالتربية .

استمرت الحياة وصارت على أروع ما يكون،كنت سعيدًا بما حققته،ومالي لا أكون سعيدًا، فمن مجرد مهندس إلى استشاري، لكن لم يكن لى أن أكون مدرسًا حتى تتحدد ملامح أخرى كان يجب أن أفكر فيها،وخصوصًا أن مهنة تصدير التعليم والخبرة أمر مجهد حقًا،ربما كنت أمارسه على نطاق ضيق ومن خلال دائرة تخصص غير مأهولة لمعظم الطلاب، لكن كانت الحياة

تبدو أجمل، سكنت في مسكن بمفردي، لأول مرة منذ جئت إلى ألمانيا أعيش منفردًا، وللمرة الأولى أمتلك سيارة،ليست غالية ولكنها معقولة،وللمرة الأولى التى أجد فى حافظة نقودي شيئًا فائضًا عن مستلزمات حياتي،بل وتعلمت أن أفتح حسابًا فى بنك أضع فيه مدخراتي، رغم كراهيتي للمال على حد تعبير»عمر بشير»وعدم السعي له برغبات محمومة كان العمل ثم العمل كل حياتي،والسعي الحثيث لفكرة جديدة خلاقة تكون مجالاً للبحث من أجل الدكتوراه هدف لا ينقطع التفكير فيه.

على اعتبار أنها الخطوة الأعمق تأثيرًا، والحقيقة لم يكن السعي لإحراز هذا الهدف سعيًا وراء ألقاب، بقدر ما كان علاجًا نفسيًا أعوّض به إحباطات الماضي القريب، وحرصًا متّى على التميّز الوظيفي كوضع مادي وأدبي ناجح.. بعد فترة ليست بالقصيرة اكتشفت أننى لم أمارس الحمق منذ مدة طويلة بل وطويلة جدًا .

كانت من أجمل صفاتى أنني دائمًا أنظر لمفهوم الحمق على أنه وقود،فبعد فترة من الحمق أعود إلى سابق قوتى وتركيزي،وهذه ليست نصيحة أسديها؛لأن العودة إلى القوة والتركيز بعد الحمق، يحتاج إلى ارتداد يعبر عن إرادة قوية من الحمقى المؤقتين أمثالى !!

# المال والبنون

احتفلت بعيد ميلادى الثلاثين،مع مجموعة من الأصدقاء والزملاء القريبين،وبعد هذا الاحتفال،عدت للجلوس معى للتفكير وخصوصًا أن غربتي كانت غربة نهائية،وكعادتي التي اكتسبتها من جنوني القديم،أجلس أمام المرآة وأحدث «يوسف» آخر يقبع فى داخلي،كنت أسمع لهجة مستفسرة عن المستقبل،فأقول:المستقبل معالمه شبه واضحة،ولن يضير فى كثير ألا يتحقق،فيباغتني السؤال:والوحدة ؟ فأردُّ:معتادٌ عليها.

فيعود السؤال.. ولكنك ريفي .. مفطور على حب إنجاب الأطفال ؟ وفجأة نظرت باشمئزاز رهيب لصورتي فى المرآة وقلت:لعلك تقصد أتزوج؟

ثم ضحكت وهبطت لفراشي،ورحت في نوم عميق .

استمرت الحياة على وتيرتها،واستمر الهاجس يطاردني بشدة ،ولكنّى كنت أنجح في الفرار منّه، فالأسرة فكرة ليست عميقة الجذور في عقلي، ولا يوجد ما يبررها من خلال بوهيميتي المعروفة.كنت استغل فترات التواجد بمفردى فى أى مكان أكون فيه وأجرب نفسي،وأتخيّل طفلاً يناديني: بابا، فكنت أضحك لها كطفل، لكن على ما يبدو كنت أستطيع أن أحيا بدون سماعها ربما لفتنة الشباب، وربما لطبيعة شخصيتي،كيتيم منذ بواكير عمري،فعلى ما يبدو التوحد كان سمتًا لا أستطيع العيش بدونه .

ليس لمجرد أن يحمل الإنسان أوراقًا تفيد أنه يحمل جنسية غير جنسيته،أن ينعتق كليًا من موروثها، وبغض النظر عن كم الإحباط الذى تعرض له جيلي

كاملاً أن يمنع نفسه من الطيران فى الهواء فى تعبير مثير عن الفرحة،والسرور لما حدث فى أكتوبر،كنت سعيدًا عندما سمعت هذه الأخبار،وخصوصًا أن مسألة العبور فوق قناة السويس،فكرة قد تبدو مستحيلة،ومن الصعب حدوثها.كنت حاقدًا على «السادات» .. كنت أتمنى أن يكون هذا النصر بتوقيع «ناصر» في الحقيقة،لكن حركة التاريخ الجدلية التى كنّا نؤمن بها في شيوعيتنا قد اختارت السادات لهذا الظرف .

ظل طعم النصر فى لساني مدة طويلة،وكان من توابع هذا الحدث أيضًا تغيير شبه كامل فى قناعاتى فى السادات كقيادة وسياسة، وإن لم يظل هذا التغيير مدة طويلة، حيث عدت إلى سابق عهدي من عدم الاكتراث بالرجل وتذبذب قناعتي، وربما انهيارها تمامًا فيما وراء سلامه المجحف مع إسرائيل . هذه الظروف حيّدت الفكرة الرامية لصناعة أسرة، بل وأبعدتها تمامًا،ربما بقصد منّى، أو لتطوّر شكل حياتى بدرجة كبيرة،إن المسألة كانت تبدو لي هاجس مجهد،ففي هذه الأثناء كنت عاقدًا العزم على صياغة موضوع الدكتوراه التى أسعى إليها كرغبة لا تفتر،بل واخترت موضوعها والذي كان استكمالاً للموضوع الأول، ولكن من خلال إعادة تنظير جديدة لآليات التخلص من المخاطر الخاصة بميكانيكا الانصهار، وطرق التخلص من النفايات بطريقة آمنة .

بدأت في التخطيط لهذه الفكرة قيد البحث واكتشفت - وهذا مسموح - أن رسالة الدكتوراه يشاركنى فيها متقدم آخر موضوعي وموضوعه البحثي مكملان لبعضهما، حيث أنه من الضروري أن يكون معى متخصص فى علوم البيئة،هو الآخر يسعى لتنظير طرق جديدة للتخلص من النفايات

بطريقة آمنة، نا فى آليات التخلص، وهو في توابع التخلص وأثرها.
استمر العمل، وكانت كل الأمور على خير ما يرام، كان الجهد عظيمًا، والوقت هو المحك الرئيسي الذي لا أريد مطلقًا أن أُهزم على يده، في هذه الأثناء وصلت إلى اللغة الألمانية كأروع ما يكون النطق والكتابة، وخطط البحث المزمع مناقشتها تسير على نظام مرتب ومحدد بدقة وعناية، وإن كان ذلك على حساب صحتي ووقتي وراحتي، هنا قفز إلى ذهني حلم كان له ما يبرره، أن يكون لي زوجة تشاطرني هذا العناء، ولكن هيهات أن أجدها بهذه السهولة،فانا أريد زوجة،ولست بصدد شراء سيارة،وطالما الأفكار سبحت لهذا الحل،فلا أقل من أن أجد زوجة أحبها، أو أحاول هذا حتى أنجح فيه،بشرط أن تكون هى الأخرى محبة وعطوفة،ولكنها صاحبة شخصية قوية.
أنا بالضرورة أحب المرأة صاحبة الشخصية القوية والذكية، بالإضافة إلى كونها حنونة ومُقدرة
أعوام ثلاثة تقترب من أربعة، وأنا أحترق فعلاً فى عمل شبه متواصل تقطعه ساعات قليلة جدًا للنوم،فيها وبدون أن أشعر أدخل حثيثًا إلى منتصف العقد الرابع، المؤكد أن كل شيء سينتهي وسأحصل على الدكتوراه وسأجنى المال الكثير وسأكون أستاذًا،ولكن سيسقط منّى الرغبة فى تكوين أسرة تكون الأهل والملاذ،ومالي أنسى هذه الرغبة،فى حين لو كنت ريفيًا كما كنت،لربما كنت جدًّا ولى أحفاد.لكنّى لم أكن معتادًا على التفكير فى أكثر من اتجاه،ولاسيما أنني قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الحلم،ومن ثمّ سيأتي خط جديد لفكر مرحلة جديدة تنتظرني، فأنا لست محمومًا لهذه الدرجة

فقط أصل لكادر وظيفي مُعين هو فى قناعاتى أهم بكثير من أي فكرة أخرى حتى وإن بدت مُلحة.

هناك أمور لم أكن أفهمها في هذه الحياة إلا فى وقت متأخر، أننا الذين نحدد شكل الحياة، بالضرورة نعم، ولكن ليست كل الأمور هكذا دائمًا

ففي اللحظة التي قمت فيها بتنحية التفكير فى الزواج حتى يتم الانتهاء من الدكتوراه، والتي كنت أعتبرها ورطة كبيرة فى واقع الأمر ورطتنى فيها الجنسية الألمانية،وورطتني فيها رغبة كامنة خلقتها مصر فى نفسى، تضحك الدنيا وتثبت أن هناك منظومة كبيرة اسمها القدر،يرسم ملامح الناس دون أن يشعروا به،هم فقط يشعرون بنتائجه التى أثرت فى حياتهم .

في زيارة للسيد» مويلر»اكتشفت أن له ابنة،لم أرها في المرات القليلة التى زرته فيها،كانت للتو عائدة من انجلترا،تعمل هناك وتتدرب فيما يعرف بإدارة المتاحف وترميم اللوحات،ترميم لفن مصاب بتقلبات الزمن،كان واضحًا أنها اقتربت من الثلاثين،كانت امتدادًا طبيعيا لعشقي القديم للنساء الأجنبيات،شقراء ذات شعر أصفر شديد،زرقاء العينين،وكأي»جنتل مان «قمت بتحيتها وتقبيل يدها، وجلسنا نحن الثلاثة، ثم انضمت لنا والدتها السيدة مويلر، وحاولت أن أتجه لها بحديثي بين الحين والآخر،ومن خلال أسئلة ساذجة معتادة، هل أعجبتك بريطانيا ؟ وماذا كان شعورك بالضباب اللندني؟ وغيرها من هذه الأسئلة .

كنت أحب السيد مويلر بشدة، واعتبره من أصحاب الفضل علىّ فى هذه البلاد، كان حديثنا لا يخلو من دعابات ونكات ساخرة مضحكة ينفجر فيها الجميع، استغرقنا وقتًا فى أحاديث من كل جهة، ثم استأذنت وخرجت

و« كلوديا» مسيطرة تمامًا على عقلي،وتحرك في داخلي رغبة للزواج منها،لأن الواضح تمامًا أنها مختلفة، جميلة وذكية وشخصيتها قوية وهدوءها رائع؛من أصعب أصناف النساء فى نظرى .. المرأة الثرثارة التي تتكلم بلا ضوابط للكلام وأحيانًا بلا داع أصلاً .

عدت إلى البيت،رسمت في خيالي سيناريو مصغر ليوم من حياتى معها،وجدتني سعيدًا جدًا،ليس من منطلق تفكير صبياني أو مراهق،بل لأنى أمتلك فراسة لا بأس بها فى تقييم النساء،وخصوصًا أن بصمة روحها كانت تشبه إلى حد كبي«لورا» كأنثى محبة، أو تعرف الحب وتضحياته، وتستطيع أن تكون المهدئ الحاسم لنزعاتي ونزواتي الجنونية واحتواءها لى بحبها لأعود إلى دائرة الصواب، وهذا ما كنت أحتاجه لكي تستمر حياتي بشكل ناجح وخالي من المنغصات؛ حيث أننى واحد ممن يكرهون تلك الأمزجة المحرضة على الاكتئاب.

رحت فى دنيتى التى لا أعرف سواها حتى هذا الوقت،وبعد عام من هذا التاريخ صرتُ صاحبًا للقب دكتور فى ميكانيكا الوقود المنصهر،وأصبحت قادرًا على ممارسة التدريس فى مادة هندسة الوقود الآمن.كان معى كل من أحبهم فى هذه الأثناء إلا الدكتور «مويلر»،فلم أجده، ولم أجد كارتًا يحمل تهنئته،أو زهورًا سبقتني إلى البيت موَّقعة منه،ولا شيء مطلقًا.. سعيت للسؤال عنه،فعلمت أنه مريض،يرقد بالمستشفى في حالة شبه خطيرة.زرته وكانت الزيارة من وراء جدار زجاجي،نظرًا لأنه فى شبه غيبوبة أو ما شابه والعديد من الأشياء الطبية معلقة بجسده، كان المشهد مؤثرًا على نفسي، لا لأني أحبه من منطلق العرفان بجميله معي، بقدر حزنى على ضعف الإنسان

أمام جبروت المرض،خرجت بعد أن ألقيت عليه نظرة طويلة إلى القاعة المجاورة،وجلست وبكيت بشدة، الغريب أنني لم أنتبه لأحد رغم أن هناك سيدتان يجلسان قريبًا منّى،وما كانتا سوى السيدة مويلر وكلوديا.. فقمت بتحيتهما بسرعة، وانصرفت مجففًا دموعى، وعدت إلى حياتي.

زرته مرة أو مرتين بعدها،ثم تابعت حالته بالاتصال بأسرته تليفونيًا،حتى علمت أنه قد زال عنه الخطر،ورجع إلى البيت ناجيًا من جلطة بالمخ،فقط خلّفت شللاً بسيطًا فى يده اليسرى،وثقل خفيف بالقدم مع حركة لا إرادية للعين اليسرى.ابتهجت واصطحبت معي باقة من الزهور وزرته،كنت سعيدًا به،وهو أيضًا كان سعيدًا بوجودي،والمؤلم من وجهة نظره أننى الشخص الوحيد الذى كان يتابع حالته باستمرار، قمت بالتسرية عنه وتحدثنا،لكن بمعدل أقل؛ مراعيًا حالته،ثم طلبت الإذن بالانصراف،واصطحبتني كلوديا حتى الباب، وسألتني لماذا الهاتف عندي دائما لا يجيب؟ .. جرس طويل ولا إجابة ؟

فقلت: لأنني دائمًا لست فى البيت،أو ربما لأنك لا تتحدثين ليلاً، فأكون موجودًا للرد .

هنا نظرت بدهشة وسألت:كل أسرتك ليست بالبيت ؟

ضحكت وقلت:لا أسرة لى لتكون فى البيت.فأنا بمفردى منذ سنوات ليست قليلة .

ماذا يضير الثقافة الشرقية إن طلبت المرأة الزواج من الرجل وليس العكس؟ولماذا يُفسر ذلك على أنه تراجع للحياء المعروف عن المرأة؟ومن قال أصلاً أن الحياء صفة جميلة من صفات المرأة ؟

إن هذا الخجل الذى زرعته الثقافة الشرقية هو نفسه المسئول عن فساد العلاقات الزوجية أو على الأقل سببًا مباشرًا للخيانة الزوجية،رأى مباغت.. ربما . لكن أنا كرجل أسأل : لماذا أجد متعتي الجسدية مع عاهرة ولا أجدها مع زوجتى ؟ لا إجابة واضحة سوى لأن العاهرة لا تعرف الخجل ؟ وما يضير زوجتى أن تفعل ما يحلو لها لمتعتى كرجل،حتى نستمتع معًا ؟ كانت الجملة التالية للجملة التى قلتها لكلوديا،حيث قلت :فأنا بمفردى منذ سنوات ليست قليلة.فقالت :إذن لنتزوج إذا كنت تفكر في الأمر.ولأني فلاح من الشجاعة أن أعترف أنّى دُهشت أيضًا،ولكنّي على نفس الدرجة أفهم أبعاد ثقافة هؤلاء القوم الذى أحيا بينهم.

فما كان متّى سوى أن ابتسمت، وقلت نعم أفكر،ولكن نتزوج بهذا الشكل أليس من الأجدر أن تعرفيني بشكل جيد؟ فقالت بثقة: من يبكى لمرض رجل لا يرتبط به، لا عاطفيًا ولا بصلة قرابة ولو بعيدة، بل لعرفانه بجميله،ربما لم يكن يقصده كمعنى للجميل،حيث أن ما صنعه فريضة أملتها طبيعة عمله، ومع ذلك يبكي،هو بالضرورة إنسان، وهنا أدركت أن ما سقط من دموعى يوم المستشفى كان الباب الذى عبرت منه لحلم الزواج منها،كل الظروف تخدمني، رغم أنى لم أكن أبكي على «مويلر» بل كنت أبكى على الإنسان المريض فى المطلق،وضعفه أمام المرض،لكن الصدق كل الصدق أننى كنت أحبها فعلاً وهى بدورها فيما بعد أحبتني أكثر، لا لأني إنسان على زعمها، بل لأنني كنت مؤمنًا بإخلاصها لي، وأنا لم اعتّدْ أن أخون أبدًا.

# قدرٌ كالموت أو في طعمهُ

تحدثت مع كلوديا كثيرًا عن الماضي البعيد والقريب،وتجربة الاعتقال النزوات العابرة وغير العابرة على السواء، وهى أيضًا حدّثتنى عن نفسها كثيرًا، تعجبت.. كيف لامرأة فى جمالها ولم تعش حياتها كأي فتاة أوربية فسرت ذلك كونها مكثت كثيرًا في المدارس الداخلية نظرًا لانشغال أبويها عنها، هي يتيمة أيضًا، ولكنه يُتم مُقنّع على ما يبدو؛ ونظرًا للتماس مع هذه الحقيقة، تلمّست الطريقة المثالية لكسب هذه المرأة، حيث سيكون مفتاح قلبها وحبها هو أن أغمرها فى العطف والحنان الذي افتقدته كثيرًا فى بواكير عمرها.

كنت أريد ما هو أكثر من الحب،وهل هناك ما هو أكثر من الحب؟ نعم،أريد أن نذوب معًا حتى لنصبح كيانًا واحدًا فى حياة تحتاج منّا لذلك تم تحديد كل شيء وظلت المشكلة أين نتمم مراسم زواجنا، اكتشفت أن الزواج كوني مسلمًا لن يكون فى الكنيسة، وهذه المسألة كانت ترهق تفكيري، وعرفت من السيد مويلر أن المراسم ستكون في صورة حفل بعد إتمام عقد الزواج في مكتب التوثيق المدني التابعين له في بلدتنا.كان يومًا فاصلاً من أيام حياتي، يوم أن تزوجت « كلوديا» ولأول مرة أكون على هذا القدر من التفاؤل، وجدت أن الدنيا بصدد ترسيم شكل آخر لحياتي فلم أعد ذلك الأحمق العتيد، فلا نزوات ولا مغامرات، ولا سهر، إلا في نطاق ضغط العمل، وآمنت أن الزواج منها من أكثر قراراتي صوابًا

وكانت تبدو عليها أمارات السعادة البالغة.
كنت مصممًا على منهجية عجيبة كانت تحضرني وأنا اجتاز باب بيتنا الذي ندخله كزوجين،أن تكون كلوديا فى قناعاتي ابنة وأخت وليست مجرد زوجة،ربما لأني وحيد، حاولت أن أخلق هذا الشعور داخلي، لكن لا أستطيع أن أقول أنني حافظت على هذا التوجه ونحن فى غرفة نومنا،فهي أختي وأبنتى من بعد باب هذه الغرفة .
كانت السعادة منتشرة على جميع الأصعدة؛نجاح فى العمل،وحياة هادئة مع سيدة جميلة وعظيمة بالفعل،كنت أخاف أنا الذي ما عرفت الخوف أن أُحرم من هذه السعادة لأي عارض من شأنه حرماني منها، وخصوصًا أنني معتاد على هذه المواقف العارضة المؤلمة،التي كثيرًا ما اعترضت حياتي بشكل يدعو للرثاء،لكن أعترف.. ساعات الصفاء كانت مستمرة، والتفاهم العميق، والحب المتبادل هو دستور حياتنا الذي أقسمنا عليه يمين الولاء .
مكثت فترة أمرن نفسي على سماع كلمة بابا؛بعد أن أخبرتني أنها حامل كنت أتوارى عنها لأقولها فى السر،وأتصنّع أنى أرد على ابني أو ابنتي المتوقعين عندما يقولوها،ولكم كنت أخرج من هذا التخيّل حزين جدًا،لا لشيء فى الحقيقة،ولكن لأني لم أقلها أبدًا،هذا بالإضافة إلى كارثة أخرى لا تقل ألمًا عن الأولى حيث سأظل أسمعها بالألمانية فيضيع مذاقها الرائع من فمي.
حددوا لها السادس عشر من يناير٧٩ موعدًا لمتابعة المستشفى للولادة، كنت منهارًا، وخائفًا عليها،وعلى هذا الطفل المنتظر، كان الجميع يقوم بتهدئتي ومشفقين على خوفي، حتى خرجت إحدى الحكيمات التي أعلنت لي البشرى أنى قد رُزقت بمولود ذكر، وبإمكانى بعد دقائق معدودة رؤيته

ورؤية زوجتي، كنت أبكى بشدة ولست أدرى ما سر هذا البكاء،هل كانت دموع الفرح التي كنت أسمع عنها ؟ أم أبكى عدم وجود أكثر الناس فرحًا به منّى على قيد الحياة.. أبى وأمي ؟ دخلت غرفتها وقبلتها وشكرتها وبدون وعى منّى أو قصد قلت: أشكرك أن أتيتِ لي بأخ يحمل لقب ابنى وبكينا معًا .كان السيد مويلر أكثر كرمًا مما كنت أتصوّر، حيث توقعت من فرط ثقته فى حبي له سأسمى الطفل على اسمه،ولكنه نصحني أن أسميه أسما لينًا،كي يكون مناسبًا لواقعنا الألماني، وفى نفس الوقت ليس غريبًا عن ثقافة أبيه العربي المسلم،وهنا أعترف ورغم كل شيء،أنني كنت أفكر في «عمر بشير».

فكان على الفور عمر كان قرة عين لي ولأمه، وكانت حركات عينه وأنا ألاعبه تنم عن ذئب ورث مكر أبيه،وتلفيقاته المُقنعة .

كنت أمارس أشياء غريبة مع ذاك الطفل،كانت تجعل كلوديا تضحك علىّ بعنف، أدخل عليه وهو نائم لأشاهده،وكأنني مشاهد مبهور من رواد «برودواى»؛ كان قلبها أشد قوة منّى عليه،بل وكانت تعتقد،وربما كانت محقة أن العطف الذي أمنحه له، إذا استمر على نفس الوتيرة إلى تمام نضجه ربما يضره .ولكنّي كنت منتبهًا لهذه المسألة بشكل جيد،حيث كانت متعتي فى هذه الفترة، وللخروج من متاهات العمل أن أقرأ كتب أصول التربية وعلم النفس التربوي وغيرها .

علمّني»عمر» ومولده كيف تُخلق الحياة،وأعترف أن هذا الولد الرضيع ربما كان الحجر الأول الذي ألقاه القدر فى بحيرة أفكاري لأعيد النظر فيما كنت أتبناه من أفكار تتجه بقوة لأطروحة الفكر الشيوعي ذاته، فأي جدلية تلك التي تتجاوز في حركتها، تلك العملية المعجزة التي تحيل نطفة لا قيمة لها

إلى كيان حيّ، وكيف يمكننا تحييد الله ونحن بصدد تطبيق إشكاليات الطرح برمته،وأنا و أمه بصدد ولادته،قلت: يا رب... بالعربية ؟؟

بعد عيد ميلاده الأول كانت أمه حاملاً فى طفلنا الثاني،وبعد أن أخبرتني بالحمل،ذهبت في رحلة عمل،خارج البلاد استغرقت قرابة عامين متصلين،تخللها إجازة قصيرة فى البداية،ولكنها لم تمكنّي من التواجد يوم مولده، والذي كان فى الخامس والعشرين من نوفمبر ٨٠ .

عدت إلى ألمانيا بعد أن تجاوز المولود الثاني العام وقليل،وأذكر أني أرسلت تلغرافا باسمه.

فكان «علي» ثاني أبنائي، كنت متشوقا للاثنين معا «عمر» عشقي الأول و«علي» ذلك المجهول الذي سميته كذلك،حيث ظل أبيه عمرًا فى غياهب الحيرة،لا يدري ماذا حدث في خيمة الوطن بين عمرو والأشعري.

انتهيت من عملي، ورجعت بسرعة لأجد أن اسم «علي» كان الأنسب لهذا الطفل الذي تبرق عيناه في ذكاء مبهر، احتضنته طويلاً حتى كاد يموت بين يدي، وأفقت على صياح أمه:الولد، أحذر.

ولكنها لم تكن لتعرف أن هذا الغلام بملامحه هذه؛أمي التي تمشي على الأرض، تعلقت به بشدة، وإن كنت لم أتراجع ولو للحظة عن حبي لـ«عمر» وأذكر أن جدتهم بعد ولادة «علي» قالت لي:أما آن لك أن تعطى ابنتي الراحة من مشقة أنجاب الأطفال؟

ضحكت ساعتها، ونظرت لزوجتي وقلت:ما رأيك ؟ فضحكت بدورها وقالت : رجل شرقي لا يهتم .

فى هذه الأثناء وبعدها لم يكن لي حلم في هذه الحياة إلا وحققته، ولا يوجد

حلم قيد التحقيق إلا وكنت أسعى لتحقيقه، وأنا واثق من النجاح.
كانت السعادة تسيطر على كل تفاصيل حياتي، انتقلنا حيث عمل آخر أكثر تميّزًا في شتوتجارت،ومسكن أوسع وأروع مصمم على طراز إنجليزى جميل،وسط مساحة رائعة من الخضرة، وسيارتان حديثتان واحدة لي،والأخرى لرحلاتنا العائلية فى الداخل والخارج حيث كنت مولعًا بالسفر لأي مكان، ولو كنت أراه فى الحلم،تراجعت أشياء كثيرة من جملة نزعاتي،لكني احتفظت بحب السفر والصعلكة، وظللت أحمل من تراث أيامي في مصر الولع الشديد بالقراءة فى كل مناحي المعرفة، وخصوصًا الشعر و الأدب.
كانت أول مشكلة تعترضنا وخصوصًا أننا فى مراسم زواجنا، وفي بنود العقد المدني الذي وضعنا فيه شروطنا، حيث أنني رجل مسلم
فبالضرورة أولادي مسلمون، ولا مجال مطلقًا للحديث عن هذا الملف المختص بالعقيدة الدينية؛ لأن الحديث فيها حديث محفوف بالمخاطر
وأن الهدف الرئيسي الذي يجب أن نحرص عليه هو التأكيد من وقت للآخر على أنى مسلم فعلاً،ويجب أن نزرع هذه الفكرة فيهم بشكل أكثر وعيًا وعمقًا
فالأهم لنا فى هذه المرحلة أن يكون أبناءنا أصحاب دين في الأساس
بغض النظر عن كينونة هذا الدين ومُسماه، وإننا حين أسلمنا بالنسبة لأولادي على الأخص كان قرارًا جماعيًا، لا يضير زوجتي من قريب أو بعيد أن تشاركهم الاعتقاد، ولو من باب الحرص على عدم تشتتهم عقائديًا فوجئت بوالدة زوجتي أنها تعنفنا بشدة لعدم تعميد الأولاد حتى الآن،وربما كادت زوجتي أن تنساق وراء هذا الطلب المشروع من وجه نظرها.

وأدهشني رد فعلها،وهنا ظهر»يوسف»الطيب والزوج المُحب فى مشهد ربما لم يتكرر ثانية بطول زواجنا .. قلت:إنكم تتحدثون في الأمر وكأنني بروتستانتيا،أولادي مسلمون بالضرورة ،وهذا موجود ومثبت في أوراق رسمية،ولعلكم إذا راجعتم شهادات ميلاد أولادي لوجدتم ملحقًا مرفقًا مع وثائق الميلاد يثبت هذه الحقيقة،ونسخة من عقد الزواج الذي يتضمن هذا الأمر .

قالت والدة زوجتي: وما جدوى أن يكونوا مسلمين ؟

قلت:ليكونوا أصحاب دين فقط أعتقد فيه.الله رب كل أصحاب الديانات.

قالت:إذن فلا مشكلة .

قلت:لا...هناك مشكلة؛فأنا فى مصر لي مجموعة ممتلكات لا بأس بها،واليوم أو غدًا سأموت،فلماذا يُحرم أولادي مما لأبيهم لمجرد شكليات لا فائدة منها .كانت»كلوديا»صامتة تمامًا،وواقعة تحت تأثير حالة كبيرة من الدهشة فى الحقيقة،كانت ملامحي غير ما اعتادت على رؤيته وكذلك السيدة "مويلر «ولم تنبس كلوديا بكلمة واحدة، ولكنها بعد دقائق معدودة قالت: نعم نعم.

خرجت من البيت وجلست في أحد الأماكن أفكر فى هذه المعضلة التي حركتها جدَّة أولادي بحديثها،كان من الأجدر أن أفكر أنا شخصيا فى حقيقة أسلامى،قبل أن أتكلم مع أسرتي كواحد من الفاتحين،كانت إيمانياتي ضعيفة،لكن معتقداتي كانت قوية،كنت شيوعيًا حقًا،ولكني لم أكن كافرًا،أنا قروي وذهبت لحفظ القرآن فى الكُتاب، ألا توجد آية واحدة تستطيع حسم هذه المعضلة؟بالتأكيد يوجد آيات وليس آية، لكن ورغم كل شيء من شأنه أن يجعلني أظهر كرجل قليل الدين،لكنّى أملك ثقة كبيرة أن أسلامى يقين

مبهر مهما زاد أو نقص حجم تأثيره فى حياتي .
عدت للبيت في ساعة متأخرة فوجدت كلوديا فى انتظاري وقد ساعدتني بشكل لم أكن أتوقعه.. قالت:أنا آسفة جدًا أن نسيت ما اتفقنا عليه،فالدين علاقة قبل أن يكون مجرد مسمى،وطالما لم تفرضه علىّ كوني زوجتك،وعلى اعتباري مسيحية من نسل مسيحيين،فلا أقل أن يكونوا أولادنا على دين أبيهم،هنا قبلتها وشكرتها لتفهمها ووعيها للخروج بنا من هذه المسألة لبر الأمان.
مرت الأيام بسرعة،كنت فيها مشغولاً لدرجة كبيرة،من عمل مستمر وحياة عائلية يجب التواجد فيها بشكل إيجابي وفاعل.
رحلت إلى فرنسا للعمل فى منطقة الألزاس الحدودية في نفس مجال التخصص لما يقرب من سنوات ثلاث.
عندما رجعت،وصلني خبر وفاة «عمر بشير» كواحد من أصعب الأخبار التي وصلتني من مصر،وكان قبلها قد أرسل لي رسالة إنسان كان يحتضر رسالة مغرقة فى اليأس، وشاعرة بقوة باقتراب الأجل، وكنت للتو قد قرأتها وأنا أتهيئ للرد عليها، وترجمت معانيها لزوجتي فبكت منها، فما بالها لو قرأتها بلغتها ؟
لكن بعد كتابتي الرد وفى ساعة متأخرة من ليل اليوم التالي وجدت «حمدي عليوه» يتصل بي ليبلغني الخبر.
قال تحديدًا :
- يوسف عندي لك خبر صعب
- ما هو ؟

- أرجو أن تكون هادئًا
- حمدي قل ما تريد
- لكن ما أريد قوله ليس هينا
- حمدي أنك تقتلني بهذا التطويل الغير مبرر.
- "عمر" مات .

أغلقت الهاتف فى هدوء،ومرّ تاريخنا معًا وأنا جالس فوق أريكة كانت بجوار الهاتف الذي ظل يرن بلا انقطاع وأنا تقريبًا لا أسمعه، حتى أتت كلوديا لتقوم بالرد، وكان المتحدث «حمدي» الذي يسأل عن صحتي وحالي .. قالت:هو بخير،ولكنه فى سكوت غريب وعينه تكاد ثابتة ولا تتحرك،أفي الأمر شيء ؟

الواضح أنه قد قال لها أن «عمر» مات . قالت سأرى ما به.

بمجرد أن حاولت أن تقوم بالتسرية عنى، قلت لها كلمة واحدة: أريد أن أبقى وحدي، ورحت في بكاء شديد جدًا؛ لم أكن أبكيه في الحقيقة، ولكن كنت أبكى الصداقة ممثلة فيه.

مكثت فترة طويلة لم أستطع فيها أن أنعتق كليًا من مؤثرات هذا الفقد،بل مارست جنوني الذي كنت قد ودعته فترة طويلة،وحفرت اسمه على رخامة ووضعتها كشاهد لقبر أتوهمه خلف منزلي،أزوره دومًا، وكانت «كلوديا» كثيرًا ما كانت تنظر إليّ وأنا أقف أمام هذا القبر الوهمي وتبكى على منظري.

كانت الأمور تسير بشكل جيد، لكن زوجتي ولست أدرى تحديدًا، لم تكن تستريح نفسيا لفكرة التواجد فى فرنسا،وأنا لم أكن مرتاحًا للتغيير المفاجئ فى حياتنا وخصوصًا مسألة التعليم للأولاد.هذا إلى جانب رغبة كانت تعتمل فى

قلب «كلوديا» أن نفكر بشكل جيد فى إيداع «عمر» مدرسة داخلية،ومن ثمّ «علي» من بعده؛ حتى لا نصيب الأولاد بشيء من التشتت، وهنا رفضت بشدة، بل واعتبرت أن هذا التوجه من قبلها توجه ينوى قتلى فى الأساس وخصوصًا أنني ابن الغربة والاغتراب طول عمري،وتجنبت في قمة ثورتي أن أدلل على فساد هذا الرأي بما حدث لها وهى طفلة على يد أبويها .

أصبحت أفكر بشكل لم يكن موجودًا فى الماضي، وهو التفكير فى صناعة ثروة؛ ليس بقصد تركها لأولادي فى الحقيقة، وإن كان ذلك هدفًا أيضًا ولكن لرغبة فى داخلي أن يأتي يوم فيه أرتاح من عناء السفر الطويل والجهد المتواصل من أجل التواجد والنجاح، فما كان منّى سوى أن صرت أسابق الزمن من أجل إنهاء العمل المخوّل لي عمله فى فرنسا .

وجدت نفسي محسوبًا وبدون قصد على قائمة من يمكن اعتبارهم أثرياء وكان لزامًا أن أفكر بشكل أكثر إيجابية فى الواقع وخصوصًا أنني وصلت لسن متقدم نسبيًا، والولدان يكبران من حولي، وكل يوم يمر علىّ يضيف جديدًا لمعدلات الخبرة التي اكتسبها،وأحمل خلفي قوة دفع نظرية ممثلة فى دكتوراه فى مجال تخصصي الذي ظل للتسعينات لا يعرفه إلا أشخاص أربعة أو خمسة فقط على وجه البسيطة؛ حيث ظل الانشطار هو شغل العالم الشاغل كوسيلة وحيدة منفردة للحصول على الطاقة الجبارة .. النووية بالطبع، بينما أنا رجل الانصهار.

بدأت أتعامل مع خبرتي بروح تاجر؛ سعيت لتدشين شركة أمتلكها تكون هي الكيان الذي يتعامل مع من يريد هذه الخبرة وفهم هذه التقنيات كانت كلوديا تشفق علىّ بصورة مدهشة،لكنها تعرف من واقع العشرة الممتدة

بيننا أنني رجل لا يعرف الراحة، حتى في أوقات الإجازات التي من المفترض أن أرتاح فيها،دائمًا أجد ما أفعله،كنت فى نفسي أعتقد أنها ضحت كثيرًا من أجلى،ويكفى أنها بعد إنجاب «علي»بالتحديد تحولت كليًا إلى كونها ست بيت فقط وجعلت متّى ومن أولادنا شركتها التي تتفانى فيها وأعتقد أنها كانت فخورة بي،وتشعر من وقت لآخر أنها سيدة محظوظة أنها تزوجتني، وإن كنت أشك أنها محظوظة لأنها متزوجة من رجل مُجهد يكره الراحة، كراهية الناس للموت .

فى لحظة أستطيع توصيفها عمياء،كنت في غرفة مكتبي،حيث لم أعد أخرج من بيتي إلا لمتابعة أعمال الشركة،والخروج إلى الجامعة مرتين لمتابعة الفصل الدراسي الذي أقوم بالتدريس به كزائر لطلاب الدراسات العليا التي تختص دراستهم بميكانيكا الوقود،كنت أقرأ بعض الروايات،شعرت بعد أن أتعبني النظر أنني بالفعل قد صرت شيخا؛اثنان وخمسون عامًا؛ نصفها وكأني مخمور لا يفيق من سكرته، وكأن الله لم يخلق دولة اسمها مصر أبدًا، قلت ما هذا العبث؟ أما آن لي أن أسامحها لكي تسامحني هي على هذا النسيان الذي امتد كل هذه السنوات ؟

كنت بصدد قرار مصيري وكبير فى حياتي منذ فترة، وكنت حريصًا على إرسال أبنائي إلى مصر،وخصوصًا أن الظروف كلها كانت مهيأة لهذه الرحلة فلا أشياء تستطيع على الأقل منع أولادي من تتبع جذور أبيهم،وبنفس الدرجة كانت زوجتي كما اتفقنا منذ أن حدثت مشكلة التعميد للأولاد، قد أدركت أنهم مسلمون بالضرورة، ولكنها كانت رائعة فى تقبل نصيحتي، التي تنصب على عدم المساس بالإسلام كدين .. وإن كانت عاجزة عن توضيح

الإسلام لأولادنا، فلا أقل من أن تحتاط لنفسها من إبداء عدم اكتراثها به.هنا حاولت من جملة أهدافي أن أرسل أولادي إلى الإسلام كبلد، وليس عقيدة نتحدث فيها .

كانت الفكرة مُلحة على خاطري،وربما لم يكن يحركها هاجس أن أكمل حياتي فى مصر،بقدر ما كان يدفعني لها دفعًا تغيير قناعتي الشخصية بمفهوم الإيمان ذاته،ولكم شعرت أنني واحد من المسلمين الذين أساءوا فهم الإسلام عندما اختار بمطلق حريته أن يتبنى الشيوعية كفكر، ولا أدّعى أنني لم أكن أحب الرسول (ص) مثلا؛ بل كنت أحبه جدًا، والغريب أن من جعلني أحبه أكثر وأكثر ما قرأته من كتاب «توماس كارليل» عنه في كتابه الأبطال، ولا أذكر أيضًا أني انفصلت عن القرآن ككتاب مقدس مبهر وعظيم، ولا أني أنكر تأثير الشعراوي عندما وصلتني أحاديثه المتلفزة.كنت أحاول جاهدًا العودة إلى حظيرة هذا الدين، ولكن هذه المرة ليس بمفردي، وأرهقني على الجانب الآخر من النهر ما كانت تنتهجه الميديا الغربية في تضخيم أعمال يقوم بها أفراد محسوبون على الإسلام؛ فيضربون أحلامي في مقتل.

أرسلت لصديقي» حمدي"والذي قرر في وقت سابق الرجوع نهائيًا لمصر ولكنه عاد بعد أن فشل في التأقلم مع الوضع، وعلى اعتبار أن الحياة فيها تغيرت بشكل مذري، وحاولت أن أشرح له وجهة نظري في الأمر، وأن الرغبة من أجل أولادي في الحقيقة، وبالتالي إذا أعجبهم الوضع سيزول نهائيًا جبل الجليد بيني وبين فكرة الرجوع، من خلال رباط عاطفي شديد القوة وهنا نفى بشدة أنهم سيستطيعون تحقيق هذا الحلم، فالبون شاسع بين الحياة هنا وهناك .

لم يعتريني يأس في حياتي مثلما اعتراني اليأس الذي خلّفه حديثي مع «حمدي» كنت حريصًا أن يحب الولدان مصر ويحتفلوا بوجودهم فيهاوفى لحظة من لحظات حياتي التي لا يمكن نعتها متسرعة أو ينقصها التركيز.
أرسلت إلى محامى مصري توكيلاً من ألمانيا، وصيغة تنازل موثقة تتيح لأبناء عمومتي الحصول على ميراثي من والدي والذي كان على ما أذكر ١٢ فدانًا.شريطة أن يبقى البيت الذي ولدت فيه ملكًا خاصًا وما حوله من أرض،ووثيقة أخرى أتنازل فيها عن ميراث أمي لأولاد خالي - رحمه الله - وحده.
وقمت بتحويل مبلغ مالي كبير لصالح عمتي إنصاف.وقلت فى نفسي أن الأرض لم تعد هدفًا، بالضرورة لن أعود فلاحًا كما أرادت أمي، أما عن خالي وعمتي، لم يكن قراري لأنهم طيبون ومؤثرون فى حياتي، فلم يتمكنوا أصلاً من أن يكونوا مؤثرين، ولم يسعفهم الوقت والظرف، ولكنّي أردت فقط أن أكافأ أكثر شخصيتين تأثروا لرحيلي طفلاً من «الدراكسة» .
لم أكن أعرف تحديدًا لماذا أردت الاحتفاظ بالبيت؟وخصوصًا أنني حتى لو نجحت فى مسعاي الرامي لعودتي لمصر وأولادي معي،فلن نقيم في قريتي؛فهذا بالفعل مستحيل جدًا،بل كنت أتوقع همهمة واعتراضًا،ورفضًا إذا علموا بوجهتي،وأنا معهم في الحقيقة،فقيمة «الدراكسة»أنها جذوري، وأرض مولدي ومولد أبي، نعم.. لم أتعاطف كثيرًا معها،حتى عندما كنت أزورها كبيرًا فى السن بعد رحيلي منها إلى الإسكندرية، لم أكن لأطيق البقاء فيها أكثر من يومين،أشعر فيها بضيق لا أحبه، ومع ذلك أعترف أن قرار احتفاظي بالبيت، أول قرار أتخذه بدون أن أفهم سببه، لدرجة أني سألت

«كلوديا» عن سبب يبرر عجزي لأن أفهم جدوى قراري، فأشارت.. ربما لبقاء شيء تمتلكه هناك،أو لترتاح فيه عند زيارة قبر والديك، وهنا تذكرت قيمة أخرى «للدراكسة» كنت غافلاً عنها تمامًا، ولكنّي ضحكت بعنف وضحكت معي عندما تصنّعت السخرية من جهلها بالسبب الرئيسي للاحتفاظ بالبيت،فقالت: كنت تختبرني إذن،أنت تعرف السبب؟

فقلت: وأنا أفشل فى كتمان ضحكة كبيرة : ليكون متحفًا باسمى تزوره الناس لترى من أي طين خرجت عبقريتي !! وضحكنا معًا حتى أصابنا السعال .

اصطحبت زوجتي الولدين ثلاث مرات للإسكندرية خلال عام ٩٦ وكانوا فى المرات الثلاث من نزلاء فندق سيسل.كنت أوّد أن تطول زيارتهم،وخصوصًا في إجازات مدارسهم، ولكن هيهات.أربعة أسابيع وأراهم أمامي، وفى كل مرة يعودون مسرورين من الرحلة وخصوصًا«علي»وكلوديا،بينما «عمر» يرى أنها تعوقه عن أصدقاءه هنا، ومع ذلك كانت كلوديا معجبة بمصر كدولة نزورها،وليست كدولة للإقامة، وترفض الحديث عن أي سلبيات سجلتها أثناء وجودها،كنت أحزن فى داخلي، وأحيانًا كنت قياسًا على ما أسمعه من أخبار مصر،ألتمس لها ألف عذر، ومن المضحكات التي كان يفجرها حديثي معها .. عندما كنت أسألها عن مكان تفضلين أن نعيش فيه بالإسكندرية؛كانت تقول:حدائق انطونيادس أو قصر المنتزه .. فأضحك بشدة وانصرف مصحوبًا بالخيبة؛ فأنا»يوسف، ولستُ فاروق الأول ملك مصر والسودان .

كنّا نمتلك وجهتي نظر مختلفتين في مسألة الإقامة في مصر، ورغم أنها تعرف جيدًا مدى صلابتي فى موضوع الرحيل إليها، لكنها كانت تؤمن بصعوبة

قرار كهذا على نفسي،قبل أن يكون صعبًا على أولادنا،فمن الصعب أن نتأقلم بسرعة،وأن ربع قرن من الزمن أو يزيد ليست مدة قليلة لرجل مثلي،ترك بلده بشكل دراماتيكي،وتعرف أنها ستكون نفس الإشكالية بالنسبة للأولاد إذا فكرنا بشكل جيد أن نرحل للإقامة،هذا بالإضافة إلى تركي الكرة فى ملعب الأولاد لتجريب الحياة بدوني،ليس قرارًا صائبًا،فربما معي سيكون الأمر مختلفًا؛فربما تفتحت سبل أخرى لكشف وجه أكثر إشراقًا لمصر،لم يره الولدان في المرات التي زارا فيها بلد أبيهم بدونه، كانت محقة تمامًا فى ذلك،وصارحتها بما صنعته لعائلتي من تنازلات تمت لمتلكاتي في مصر؛فكانت مسرورة جدًا؛وتعجبت وشعرت هي بهذا،وبادرتني أن السعادة هنا ليست لأن جذور أولادنا في مصر قد بُترت بهذا التصرف ولا لأنهم لن يحتاجوا للحديث عن دينهم في موطن أبيهم، بل لأنها كانت تتوقع هذا منذ فترة، ونحن بدون شك لا نحتاج لشيء أكثر مما نحن فيه.كنت محتاجًا أن أصدقها، لأن إحساسي أنها سعيدة للأسباب التي نفتها كان سيعمق جروحي بالفشل فى إقناع أولادي بمصر كبلد صالح للحياة. وإن سيطر عليَّ شك ما أنها سعيدة حقًا وصدقًا، بعد رحلة عمل،عدت لحياتي المعتادة، في دوامتين أحبهما؛عملي وأسرتي؛ ولكن القدر على ما يبدو كان يخطط لشيء آخر لهذه الحياة المستمرة من نجاح إلى نجاح، والغريب أننا بعد هذه الرحلة،بدأت استشعر أشياء غريبة، سارت الحياة على نفس إيقاعها،ولم أكن أفكر إلا فى حياتي المعتادة؛عملي يسير بنجاح، والولدان يكبران من حولي، ومستقبلهما التعليمي، بدأت تتضح معالمه؛ «عمر» طالب الهندسة وإن كان أخذ منحى آخر غير أبيه، وتخصص فى الهندسة

المعمارية، و«علي» يدرس الكيمياء.
فى كثير من الأحيان لابد على الإنسان أن يتخلى كليًا عن طريقته الكلاسيكية التي كان معتادًا على التفكير بها، وعليه أن يحتاط لنجاحه وبالضرورة حياته، من أجله ومن أجل أسرته الكبيرة التي ينتمي إليها.
شعرت بعد تلك الرحلة أنني واقع تحت حصار كبير من الأسئلة التي تمارس بشكل أكثر رقيًا من مجرد أسئلة يحركها الفضول،وربما بقائي خارج مصر طول هذه السنوات قد جعل حقيقتي كمواطن من مصر تتوارى كثيرًا إلا على خاصة من الأصدقاء المقربين، ونظرًا لأسفاري الكثيرة، ودوام الحركة حتى داخل الأراضي الألمانية؛ كادت لتكون تحركات عادية لولا إحساسى وشعوري الذي يقترب من اليقين أن هناك من يتتبع خطواتي،ويُعدُ علىّ أنفاسي،ولما لا؛والوجوه تقريبا واحدة؛ فى أماكن بعينها أتردد عليها، حتى في المطارات وبهو الفنادق، وأحيانًا داخل قاعات الدرس والمحاضرات ، لن أدّعى عدم الاكتراث بكل هذه المعطيات الجديدة، ولا أن أخفى شكلاً من أشكال التوجس والذي كنت دائمًا ما أغادره إلى أحساس بالأمان؛ مبررًا لنفسي سوء ظني فيما يحدث،على اعتبار أن ما أفعله ليس شيئًا محرمًا أو ممنوعًا أو ذا خطورة معينة .
أدركت فى لحظة معينة عندما بدأت هذه الضغوط بالزيادة أن أقص على»كلوديا»هذه الهواجس التي تتأرجح بين الشك واليقين فى مخيلتي،ولكنها كانت أكثر اطمئنانًا؛بل وبررت هذه الهواجس بأنها إحساس طبيعي لما يمكن تسميته ضريبة النجاح،والتنافس في سوق لا يرحم.كنت على وشك أن أتعايش كليًا مع تفسيراتها التي بدت لي مقنعة،ولكنّني كنت بالفعل- لن

أقول خائفًا - لكن كنت متوجسًا وأخشى أن يكون العدو المواجه والمتربص بأمتنا قد أساء فهم طبيعة عملي وأهدافي،وتلك التقنيات التي أحصل منها على الطاقة بطرق تستطيع أن تنتج ما يمكن اعتباره طاقة نووية،ولكنها ليست كذلك أبدًا.

تلقيت دعوة من صديق للاستثمار في مصر،وكان لابد أن ألبيها بشكل متسارع في الحقيقة،ولما لا،وأنا أحمل في قلبي غدَّة حاولت مرارًا أن تكره،ولكنها عجزت باقتدار،التقيت بشريكي المتوقع،ودارت بيننا أحاديث مطوّلة عن الفكرة،وطرق تنفيذها مع الأخذ بعين الاعتبار أن هناك تفاصيل كثيرة من الأفضل أن نحتاط لها بشكل جيد.

كنت متفهمًا تمامًا لما كنت أسمعه،وأعرف دلالاته على الأرض، وكنت راضيًا تمامًا عن المشروع.

ولأن الأقدار ليست دائمًا ما تلقى بستائرها السوداء فى الحقيقة،ولأن النوايا كانت مخلصة تمامًا للهدف،استثمرت كل الظروف لخدمة الموقف التي تفرضه على آليات هذا المشروع وتسويقه،لأنّي بالفعل لا أستطيع،لا من خلال فترة إقامتي فى مصر،ولا من خلال سنوات الخبرة و الغربة الطويلة،أستطيع أن أثق فيمن سيساعدني.

استفدت من كم الأجواء الغامضة التي كانت تحيط بي،وكم الهواجس التي كانت تسيطر على مخيلتي،فقمت بتجميع كل ورقة صغيرة أو كبيرة تخص هذا المشروع،وكل التصميمات الهندسية المعقدة،وكل الأشكال والماكيتات التي تم تصميمها،الأصلي منها والبديل فى حالة عدم توافقه،حتى خطط التدريب الخاصة بالكوادر الفنية، واستفدت كذلك من عنصر السرعة التي تمت بها

كل الخطوات .كنت أعلم وبعيدًا عمن كنت أستطيع تسميته هاجسًا،لا لم يكن كذلك؛بل خلف التلال يقبع عدو لا يريد ذلك أبدًا؛ أو منافسون حقًا في سوق لا يرحم. وأعرف أنه كان يعلم أنني أبديت الموافقة،ويعلم كذلك أنني بصدد الانتهاء من دوري على الأقل هنا فى ألمانيا،ويعلم أنني لا قيمة لإيذائي بدون الحصول على هذه التصميمات، للتأكد من سلامة طويتنا، رغم تأكيد جهات عديدة أنه ليس موضوعًا ذا بال ليشغل غير المصريين،وأنه مؤسسة صناعية ليس إلا، ولن تؤذي أحدًا مطلقًا، إن هو إلا مشروع كبير يساعد على توطين أسرتي في مصر.

رغم صعوبة القادم من أحداث،أعترف أن الظروف خدمتني بشكل جيد،حيث أصبت بنزلة برد شديدة جدًا،مع آلام شديدة بالظهر أقعدتني الفراش ولم أستطع مغادرة البيت، وهنا قمت بالاتصال بالشركة وعن طريق موظف طلبت أن يجلب لي ما يخص الدراسات الخاصة بما عقدت عليه العزم،مشروعنا المصري.

حضر الموظف،وقمت بمراجعته ورقة ورقة،وكل رسم وتصميم تم صياغته،ورغم كم الاعياء،كنت في أعلى قمم التركيز المتطرف، ومكثنا أنا و»علي» وبشكل يشبه العبث الطفولي،فقمت باختباره في مسألة تفكيك الماكيتات،وبأقل حركة ممكنة يعيدها إلى وضعها،ولقد أبلى الولد بلاء حسنًا فى ذلك، بل وكنت أجهز فى رأسي بديلاً إن فشل، من خلال إعادة توفيقها لاحقًا، كانت كل الظروف تسير فى الاتجاه الصحيح،وهنا باغت زوجتي أنها مسافرة إلى مصر بصحبة الأولاد فى إجازة طويلة نسبيًا، وسوف أقوم بتحويل مبلغ مالي كبير على أحد بنوكها لتتخيّر شقة تليق بنا فى الإسكندرية، وبالاتفاق

مع محامينا الخاص،ولسوف أقوم بالاتصال به ليكون في استقبالكم؛ لأني بالفعل لم أعد أطيق البعد عن مصر أكثر من ذلك، والحقيقة أنه لم يكن سوى شريكي،المهتم بأن تصل إليه هذه الأشياء، وتم توزيع كل الأوراق والمستندات والرسوم على كل الحقائب،مغلفة في صورة ألبومات ومجلات وغيرها،وخصوصًا الماكيتات فى حقيبة الابن الأصغر، كوسائل للعب والتسلية.ورحل الجميع فى صبيحة اليوم التالي إلى الإسكندرية .

لم أكن مولعًا بانتظار رنين الهاتف مثلما انتظرت رناته في هذا اليوم، الذي يؤكد لي أن أسرتي قد وصلت بسلام،كانت زوجتي في تمام التأكد أن فى الأمر شيئًا، ولكنها كانت ترده إلى مبالغتي في الحرص، وليس لأي دوافع أو هواجس تشكل خطرًا علىّ وعلى أسرتي في المطلق؛ لذا أظن أنها حدثتني من المطار؛لأنها بالتأكيد تعرف مقدار قلقي على ما تحمله وكذلك أولادنا.

كنت سعيدًا، لكن أعرف أن مشكلتي لم تنتهِ هنا؛ فلابد من صياغة سبب مقنع،رغم أنه لا غضاضة إن قلت:فُقد أو تلف أو ما شابه، لكن الحقيقة كنت أعتقد أن صياغة سبب ليس مقنعًا تمامًا مع فريق العمل، ربما يجعلهم نهبًا للقلق، وخصوصًا أن كل هذه الورقيات لها نسخة أخرى في شركتنا فما كان منّى سوى أن قلت: إن الصديق المصري زارني في البيت حين علم بمرضى،وتناقشنا معًا حول التفاصيل ، وقلت أن النقاش لا يتم بعيدًا عن طاقم العمل - نوعًا من كسب تعاطفهم مع موقفي - وهناك بعض الأمور الفنية التي التبست عليه،وهو بصدد عرض التصميمات على جهة أخرى؛وإن كنت أشك بشكل شخصي في ذلك،فالواضح أنهم تراجعوا، وقالوا ما قالوه دفعًا للإحراج، وأنا بدوري لست أدرى أين مكمن الخطأ ؟ وإن كنت

أريد من خلالكم مراجعة النسخة الثانية من التصميمات، لعلّنا نتدارك الخطأ ونفوز بالعرض، وقام الجميع على قلب رجل واحد لرؤية ماذا تم من أخطاء انتبه لها صديقنا المصري .

انتهت دوامات القلق التي كانت تحيط بي من جانب، وعادت زوجتي والولدان بعد أسبوعين، وإن كانت تبدو في كثير من الأوقات شاردة الذهن؛وتعتقد أنني ربما أخفى شيئًا، وخصوصًا أن من تسلم منها الأوراق لم يدع لها الفرصة أن تخرجها بنفسها وتمنحها إياه، ولكنه أعاد لها الحقائب مدعومة باعتذار شديد عما حدث؛ بل وبلّغها اعتذاره الشخصي لي أيضًا وهنا كان لابد من المصارحة والتي طيلة زواجنا لم تغب ولو للحظة.وقلت لها: إن عملنا دائمًا ما تلقى عليه السياسة بعض التبعات والإجراءات التي من شأنها تأمين مثل هذه الأمور، وأن ما كنت أرويه لكِ عن بعض الظنون التي تعتريني في الآونة الأخيرة، تفرض علىّ بشكل كامل الحرص الشديد على ما تم إنجازه، أنا بالفعل لا يمكن لي أن أنكر أنني شبه مُراقب وأن هناك عيون عديدة تتربص بي، وأن كنت فعليًا أعمل فى النور، ونشاط شركتي معروف،ولكن أن نتعاون مع مصر فى مشروع استثماري كبير ضخم. أمر ربما يضر كيانات أنا بالضرورة لا أعرفها، لكن اطمئني، فلن أُصاب بأذى، وتأكدي أن كل شيء على ما يرام، قلت هذا الحديث كمن يلقى عن كاهله جبال الألب، ولكن أشد ما كان يؤلمني وهى التي كانت دائمًا ما تُصدر لي الأمان والهدوء، إنها لم تكن تشعر بالأمان للمرة الأولى فى حياتنا معًا؛بل وأعتقد أنها كانت تستشعر شيئًا معينًا يلوح فى الأفق، ولكنها عاجزة عن تفسيره،وربما أيضًا شكل التعامل الذي وجدته فى مصر فى هذه المرة قد

ألقى تأثيرًا سلبيًا على قناعاتها فى تصديق مسكنات الهدوء التي حاولت أن أسقيها لها لتطمئن .

كان يجب أن تطمئن، حتى نطمئن كلنا، فليست الحياة لنا معًا، بل هناك ولدان رائعان يجب أن تستمر حياتهما كما كانت، وربما أفضل لأن كل شيء يبدو على ما يرام، على الأقل فى الخطوة الأولى.

اصطحبتها معي لمنطقة الغابات السوداء من أجل يوم نعسكر فيه بعيدًا عن هذه المنغصات،وفى نفس الوقت كنت أحاول جهدي ملاحقة من يلاحقني من عيون أصبحت أعرف ماذا تريد؛والغريب أن المرحلة اللاحقة لما صنعته،لم أعد أشعر بالملاحقة والتوجس واعتقدت بالخطأ أنهم، ربما وبشكل يبدو غير مقصود قد فهموا أن الموضوع إجمالاً قد تم إلغاؤه تمامًا أو أن المشروع استثماري وضخم، ولا يمكن بأي حال تغيير بوصلته؛ كي يؤذي أي أحد.

كررت هذه الرحلات والزيارات والأسفار فى الداخل والخارج للتأكد من هذا.وبالفعل جاءت النتائج كلها لتؤكد صدق ظني.والواضح أنني كنت مخطئًا عندما وثقت فى ظنوني وقتها أو على أقل تقدير كان يجب أن أحتاط أكثر ما كنت أمارسه من احتياط؛وربما لم يكن ينفع لرجل مثلي أن يحتاط بحكم حمقي القديم؛فأنا بالفعل لا أحب التضييق والخناق وكبت الحرية؛ لذلك فى اللحظة الأولى التي عرض فيها «عمر»علىّ رغبته فى الرحيل إلى سويسرا لنمكث فيها أسبوعًا ونتدارس معًا مسألة تخص مستقبله؛رحبت على الفور وكنت أنا صاحب فكرة الرحيل لسويسرا بالسيارة، نظرًا للقرب الحدودي بين شتوتجارت، والأراضي السويسرية .

رحلنا في ساعة مبكرة لنتمكن من الدخول نهارًا؛حيث أنني من أولئك الناس الذين يكرهون القيادة في الليل.ورغم أننا سافرنا نهارًا وعدنا نهارًا،لكن الواضح وما أسفرت عنه هذه الرحلة كان الليل كله.تلك الصفحة الشديدة الأثر فى حياتي حينها وبعدها،ومازلت واقعًا تحت نفس هذه الحالة من الحيرة الشديدة التي تنتابني من الحين للآخر، وخصوصًا أن وقع الموت على نفسي ومن خلال حياتي كلها. لم يكن سوى حدث شبه اعتيادي قليلاً لكن تظل الشخوص التي مورس ضدها فعل الموت في حد ذاته شخوصًا استثنائية فى واقع الأمر .

لكن ورغم أن الموت نفسه كفعل مُغرق في الغيبية،كنت أشعر في نفسي بوجوده، بل وكأنني أتفاداه،وهو يزاحم أجسادنا ونحن فى طريقنا للسيارة،حتى لأظن أنه سبقنا إلى الجلوس فيها،أشعر به في هذه اللحظة التي سارعنا فيها بالرحيل إلى سويسرا،في صبيحة ذلك اليوم وجدت رائحة جديدة تختلف عما وضعناه فى ملابسنا؛للموت ملمح ورائحة،لكن هيهات أن ينتبه من هم مفتونون بالحياة من بنى الإنسان لهذه الملامح،وتلك الرائحة .

السيارة مُعدّة تمامًا،رحلة أكثر منها رغبة فى الاستفسار عن شيء يخص مستقبله العلمي والمهني.. أتذكر مشهد زوجتي فى هذا اليوم،وأظن أن وجهها كان سطورًا مكتوب عليها حديث لم نكن لنستطيع أن نقرأه،حديث تحذيري متوجس،قلق، رغبة تريد أن تنفجر وتقول:لا ترحلوا.أشياء كثيرة لم أكن أفهمها فى حينه،حتى «عمر» نفسه لم يكن فى حالته المعتادة؛شرود وتوتر خفيف أغراني أن أبدأ أنا الجلوس إلى عجلة القيادة، ثم كان الوداع من خلال التلويح بالأيدي ورحلنا معًا .

يبدو لي سوء ظني كما قلت فى بعض المناحي التي كانت تلتف حولي في الفترة الأخيرة وخصوصًا أن حديث الخطر على وجودي وحياتي.لم يكن موجودًا بشكل كبير،وخصوصًا أن المعسكر المواجه لحلمي في بلادي،يعلم أن ما أنتويه بعيد كل البعد عن منطقة الخطر،وكل من يعمل معي وأشك أنه مخترق،يثق تمامًا ومن خلال خبرته الشخصية أن نشاطنا لا يمتلك أصلاً صلاحيات العداء والاستفزاز،إلا إذا كانوا لا يريدون لمصر أن تقوم أصلاً من كبوتها،بمشاريع استثمارية حقيقية،وليس من جملة هذه الأصناف من المشاريع الهلامية التي لا تؤثر بأي حال على إحداث أي نهضة، لكن الواضح أو ما كشفت عنه الظروف اللاحقة، لم تكن لتترك معسكر الرفض الآثم أن يترك الأمر للقدريات.وحتى مع التسليم بسلامة الموقف ككل،لكن يبقى وجودي فقط من وجهة نظرهم بؤرة خطر ومن منطلق الآن لا يوجد خطر، لكن غدًا ليس معلوم الهوية ولا نعرف ماذا يريد هذا الرجل من خوضه في مثل هذه المشروعات ولاسيما إذا كانت مصر هي محطته.

## نصف جسدي.. نصف كبدي

رحلنا إلى «برن»، وعلى كل الأحوال كنّا إلى حد كبير نعيش معًا كسائحين يلهوان،نرتاح عندما يعن لنا أن نرتاح، ونلعب ونلهو متى أردنا، ورغم حبي المتطرف لولداي،لكن يظل»عمر» من وجهة نظري الابن الوحيد الذي كان بأقل مجهود يسلب عقلي، ويكسب تعاطفي، وعلى الأرجح كان يشعر بذلك ولكنه كان معدنًا أصيلاً، لم يحاول أبدًا استثمار هذه الميزة لكسب أشياء يبدو معها متفوقًا على أخيه، هذا مع ذاك التطابق شبه الكامل بيني وبين الكثير من تفاصيله، وملامحه،لدرجة كنت أصرح أن «عمر» امتداد طبيعي لوجودي مرت الأيام فى سويسرا وتمكنا من السؤال والاستفسار شاهدنا المكان وإمكانياته،وتحاورنا مع نفر قليل من أعضاء هيئة التدريس الذي تصادف وجودهم مع تواجدنا، وتجمعت لدينا كل المميزات والعيوب لفكرة الالتحاق بهذه الأكاديمية،ولقد آن أوان الرحيل والعودة إلى شتوتجارت،وبنفس الروح التي تحركني في مثل هذه الظروف،مكثنا الليلة الأخيرة، وقررنا العودة فى أول خيوط النهار.

الغريب أنني لم أكن أشعر بنفس هواجسي،وإن كنت منقبضًا قليلاً، وبلا سبب واضح.شعرت أنني تقريبًا أتنفس من ثقب إبرة،وعلى الجانب الآخر كنت أشعر به قد عاد إلى نفس الشرود الذي شعرت به وقت أن بدأنا رحلتنا إلى هنا،وكالعادة بدأت أنا القيادة وهو إلى جواري،والغريب أنه أخذ يحاول الخروج مما كان فيه من وجوم، وكنت أسأله عن إحساسه بالمكان

ومسألة الدراسة هنا وأمور كثيرة من هذا القبيل،ولدرجة أنه أعلن لي أنه بصدد أن يتراجع عن الفكرة كلها،على اعتبار أن هذا التخصص موجود بألمانيا وإن كان مختلفًا قليلاً، وأن فكرة الابتعاد عن ألمانيا الآن فكرة لا تروق له .

الغريب أن الحوار بيننا تطرق إلى شقيقه الأصغر وأخذ يسألني. لماذا لا يبدو تأثيري عليه قويًا مثلما الحال معه.

وسألني .. لماذا تركت أمي تمارس دورها الكبير فى حياته بشكل واسع،ولم تتدخل فى صياغة فكره مثلما فعلت معي؟ وعبّر داخل هذا الحوار عن تخوّفه أن يعتقد «علي» مستقبلاً أنك لا تكترث به ولا تحبه مثلي.

وأنا بدوري حاولت أن أجيب على تساؤلاته بعقلانية ومنطقية وقمت بتوضيح أهدافي من ذلك، وإن كنت ملزمًا بالتأكيد على أن أخاه لا يقل عنه مطلقًا، بل وأنني أحبه بنفس القوة وإن كنت أنت تتفوق عنه فى المحبة،ولكن بنسبة طفيفة جدًا.ثم تطرق الحوار لمنحى مختلف تمامًا وفى واقع الأمر لم أكن أتوقعه..

قال:أبي إننا مسلمون أليس كذلك ؟

قلت:نعم .

قال:ولكننا لا نمارس أي شعائر .

قلت:الإسلام علاقة مع الله أساسها عدم اقتراف الأخطاء.

قال:لكن أمي أحيانًا تذهب للكنيسة .

قلت:إنها تحب ممارسة الدين في مكانه.

قال:ولا مكان لنا ؟

قلت:الدنيا كلها لنا.
قال:أبي لماذا نسمع عنكم أحاديث مخيفة؟
قلت:عنّا،لماذا تنفصل عنّي في الحديث ؟
قال:نعم،عذرا أبي ..
قلت:الغرب لا يعرف هذا الدين جيدًا، وإن عرفه فقد عرفه من خلال أعدائه .
كنت أشعر أنني الرجل الأخير في هذا العالم الذي يستطيع الحديث عن الإسلام ليقنع به أحدًا،وخصوصًا ابنه،لكن رغم بساطة هذا الحوار،كان إنذارًا بشيء لم أكن أسعى له، فليس إسلامي عقيدة منفردة أتحدث عنها،بقدر ما أصبح مسئولية أتحملها تجاه أرواح حملته معي ولا تعرفه، فلا أقل وبلا مبالغة أن أعرفه معهم، فربما نمارسه ونعيه، بعد فترة زمنية طويلة من قناعات مضطربة ومشوشة، كنت أعالج نفسي منها بتجاهل الموضوع، فلا أريد حتى أن أكون مثالاً سيئًا لهذا الدين،وخصوصًا أنني منذ فترة وأنا شبه مُطارد برغبة عارمة لمراجعة المواقف كلها .
كنّا قد بدأنا نقترب من الحدود الألمانية،وجاء دوره ليتولى القيادة،كان «عمر» يعرف بالضرورة أن سيارتنا التي نقودها تغرى على أن نسير بسرعة،ولكنه يعلم عدم محبتي للسرعة الفائقة فى القيادة.جلست بجواره وتناولت بعض الأشياء من طعام وعصائر، وفى لحظة معينة بدأت أشعر بانقباض رهيب ومفاجئ،وبشكل غير مسبوق،وربما أجج هذا الشعور عندي، ما رأيته في الخلفية للطريق الذي كنّا نسير فيه، حيث يظل الاتجاه الذي نسير فيه لما يمكن تسميته طريق السيارات الصغيرة،بينما يوجد بالتوازي

مع طريقنا ومن خلال سياج فاصل، طريق آخر للسيارات الضخمة والشاحنات،فكرت بسرعة وتوجست قليلاً،فلا يمكن أبدًا أن تكون هذه الشاحنة الضخمة قد أصاب قائدها نوع من الجهل لتوخى الطريق الصحيح،فما كان منّى سوى أن طلبت منه أن يخفف السرعة قليلاً،ويتركها تسبقنا،فإن سعت لأن تسبقنا فهذا ما أتمناه،وإن ظلت بجوارنا فأنا أكره القيادة بجوار تلك الشاحنات،وبالفعل استجاب لتوسلاتي،وتراجعت سرعة سيارتنا،لكن الشاحنة في كل الأحوال لم تسعَ إلى تجاوزنا،بل وأبطأت سرعتها وكأنها تريد أن نسبقها.للمرة الأولى في حياتي أشعر بالخوف،ولم أشأ أن أعلنه للولد بالتأكيد،فما كان منّى سوى أن طلبت منه أن نسرع متجاوزين الشاحنة لأن مجاورة شاحنة بهذا الحجم يضايقني،وأسرع بناء على طلبي،ولكن ما أن بدأت السيارة تأخذ وضعها الطبيعي للسرعة التي كنّا عليها،حتى جاءت هذه الشاحنة من خلفنا بأقصى سرعة يمكن تخيلها،فأطاحت بسيارتنا التي تجاوزت السياج الجانبي،وهوت في وادي سحيق لجبل كان يقبع عن يميننا.ثم لم ندر شيئًا بعدها .

يبدو أن القدر كان رحيمًا جدًا،رغم عمق المأساة؛فلم نكن وحدنا على الطريق،لكن السيارة التي أتت لاستجلاء الموقف،كانت على ما يبدو واقعة تحت تأثير الدهشة من شكل التصادم المروّع،وكذلك وضعية سيارتنا التي هوت إلى الوادي،لكنها أرسلت في طلب النجدة والإسعافات الطبية العاجلة لخدمة الطرق السريعة المنتشرة فى سويسرا.والواضح أن إصاباتي كانت شديدة وبالغة الخطورة، وكذلك هو،علمت فيما بعد أننا مكثنا بالمستشفى يومين بسويسرا،ثم تم نقلنا بمروحية إلى ألمانيا،والواضح أنني كنت

غائبًا عن الوعي تمامًا،وحسب روايات المحيطين بي أني أفقت بعد تاريخ ما حدث بحوالي شهر،وبعد سلسلة متصلة من العمليات الجراحية الدقيقة والمستمرة لإنقاذ حياتي،والواضح أنها كانت محاولات مستميتة،وإن كانت قد بدأت تيأس من نجاتي.

مجموعة لا بأس بها من الكسور والكدمات الشديدة والجروح العميقة وتجمعات دموية بالمخ،وفى مناطق متعددة فى الواقع،كان الفريق الطبي المُعالج على درجة عالية من الكفاءة فى الواقع،لكن فى منتصف الشهر الثاني،بدأ من حولي يشعرون أن الأمل فى نجاتي حلم مشروع،لكن وفيما يشبه الهذيان كنت أسأل عن ابني،وشريك الكارثة بعد ذلك،كنت مُخدرًا تمامًا،وأكاد لا أشعر بجسدي كله،وخيالات من زوجتي،وابني تبدو كأطياف عابرة،بعد أسبوع آخر كنت قادرًا أن أنبس بكلمات معينة أهمها .. ماذا حدث لابنى؟ عمرأين هو ؟

كانت زوجتي امرأة شديدة الصلابة،و مقنعة،حيث أوهمتني أن «عمر»ربما سيدخل من هذا الباب بمجرد سؤالي،ولكنها كانت ثابتة،رابطة الجأش.

كنت مستلقيًا على ظهري وأنا شبه مخمور،لكنها استأذنت للانصراف حيث أن الدكتور» كاسلر»يريد محادثتك عن الحالة،ودخل وتحدث معي عن الحادث،وأن السماء كانت رحيمة عندما تدخلت بعنايتها لتمنع انفجار السيارة،وأن الكسور التي أصابت العظام ومنطقة الحوض كانت مؤثرة جدًا، وعميقة، ولولا هذا السقوط المُدوي للسيارة فى الوادي، لكان جديرًا بنا أن نحتفظ لك بساقيك واللذين من هول السقوط تفتتا، فما كان منّا سوى التخلص منهما لعدم جدوى عودتهما لسابق عهدهما .

كنت أسمعه وأنا أشبه ما يكون برجل يسمع نشرة إخبارية،أو كأنه يتحدث عن شخص آخر ليس أنا،هذيان غريب وذهول،كل ما قاله تبخر ولم تبقَ منه سوى .. وادي، سقوط، جبل، تفتت، ساقي ؛ فقلت له: وعمر؟ماذا عنه؟

فقال: بخير في جوارك.وأنا ؟ فقال بخير ولكن بلا ساقين.

وبالفعل رغم كم الذهول والإحساس المتزايد بالتعب وعدم التركيز.ربما من كم التخدير الذي تناولته فى العمليات المتلاحقة،رفعت رأسي قليلا، فكانت المفاجأة،حيث بدا نصف جسدي من تحت الغطاء. فوضعت رأسي مرة أخرى على الوسادة ، بعد أن طلبت منه أن يمنحني عقارًا لأنام.

تعلمت من حياتي الطويلة أن أتقبل كل شيء بنفس راضية،لأن الرفض في حد ذاته لن يجدي من قريب أو بعيد،وليست ساقيّ بأعز من أشياء كثيرة ضاعت وأخرى أتت،لكن لست أدرى لماذا كنت راضى النفس إلى هذا الحد،كان المشهد مؤلمًا جدًا على نفسي، ففي هذه اللحظة التي لمحت فيها نصف جسدي تقريبًا؛ ذهبت نفسي حسرات،ولكن كان كل ما يشغلني.. إلى أين وصل الحال بـ عمر فى حادث كانت واحدة من نتائجه أن أبقى كسيحًا ما تبقى لي من العمر ؟

إن الله وحده هو الوحيد القادر على أن يجعلني أتوقف عن الركض،بل إن عمري كله ما كان سوى مضمار كبير لم أتوقف فيه للحظة عن السعي وراء أشياء،أو الفرار من أشياء،هنا كنت أظن أن ما حدث كان دعوة سماوية للراحة والهدوء،لأني بالفعل اكتشفت أنني مُتعب جدًا، وأن حياتي بالكامل ما هي إلا سلسلة مستمرة من الصراعات، والإحباطات والنجاحات

ولقد آن الأوان أن أخلد للراحة التي أحتاجها،فمنذ طفولتي المبكرة،وأنا أمارس الحياة بشكل مضن طوعًا وكرهًا،لفظني حضن الأهل،ورفضني حضن الوطن،وتخلى عنّى الجميع؛ ولم أسمع طيلة حياتي نصيحة واحدة إيجابية،كلمات متناثرة فقط منعمر بشيرو مبارك حسين للتسرية، ولكنها لم تكن فاعلة،وكنت انتزع حقوقي من الحياة انتزاعًا؛حاولت مرارًا أن أبدو قويًا حتى لا ينال الناس منّى،رغم أنني واقعيًا كنت أضعف ما يتصوّر الكثيرون،ومع ذلك كنت أحب الناس جميعًا،لم أكن أثق دائمًا فى حبهم لي،فحاولت أن أشتريه بأي ثمن مهما كانت نوعيته،وأخلصت للجميع ولم يخلص لي سوى قلة من الناس،معظمهم لم يكن مضطرًا لأن يُخلص لي ولأسباب عديدة،ولكنهم فعلوها ليضربوا قناعاتي في كل شيء .

جاءت الأيام التالية كتجسيد حيّ لأكبر خديعة عشتها فى حياتي،وفى كل مرة أسأل فيها عن ابني،أسمع نفس الإجابات المُطمئنة..كنت أصارع الزمن،كي أعرف حقيقة تعبه،وما آلت إليه حالته،والغريب أن الجميع اجتمع على قلب رجل واحد إمعانًا فى تضليلي،كي أظن أن كل شيء على ما يرام.كانت زوجتي تعرف عنادي وأنني لن أرضى أن أستمر مطيعًا للخداع الذي ينفذونه بحرفية مقيتة، ولا يمكن أن أعرف أن أبنى بخير ويرقد فى جواري.. دون أن أحاول أن أسعى إليه،وربما أدرك»كاسلر»أن أكبر خطأ وقع فيه،عندما أخبرني أنه معي في نفس المستشفى،وخصوصًا أن الرغبة مُلحة وبقوة أن أراه،لكي يطمئن قلبي،لكن كانت زوجتي مع مرور الوقت تحاول تصدير الهاجس وتتصاعد به لتخبرني حقيقة،مازالت تعجز عن قولها،وهنا قلت لابد من الاعتماد على نفسي، وطلبت مساعدة من

الموظفين، ومن خلال كرسي متحرك أن أصل إلى الجناح الذي يرقد فيه ابنى،كان من المستحيل أن يُلبى طلبي نظرًا لكم الإصابات البالغة المنتشرة في جسدي،ولكنّي كنتُ مُصممًا بشكل يحمل معنى الثورة والهياج الشديد،رغم عدم مقدرتي الفعلية على القيام بثورة،كان الأسهل من وجهة نظرهم إخبار أسرتي بحقيقة طلبي،ومن الصعب عليهم، وهذا كان منطقيًا جدًا،أن يمكنوني من رؤية ابنى،أوهموني أنهم بصدد تحضيري لرؤيته، وبعد دقائق معدودات وجدت أسرتي بالكامل محتشدة فى غرفتي ومعهم الدكتور كاسلر وصديق ألماني مُقرب يدعى ( رالف) .

كنت متعبًا جدًا وتائهًا فى الواقع،والكل يحملق فى وجهي،والكل يصارع من أجل حبس دموع تبدو متوقعة الجريان بين لحظة وأخرى، ورغم التعب البادي علىّ،كنت أظن أنني من القدرة على فهم شيء يبدو فى الأفق،فقط كنت أحتاج تكذيبه اعتمادًا على ما سمعته من تأكيدات كاذبة أن كل شيء على خير ما يرام، لكن رغم كم الأشخاص الموجودين بالغرفة،كان الهدوء والصمت هو العنوان الرئيسي لتلك اللحظات الرهيبة،ثم قطعه ( كاسلر)الذي قال فى صوت خائف: سيدي. تعرف أن الحادثة كانت شديدة جدًا ونتائجها شديد الخطورة،وتعلم أن خسائر الكوارث الكبرى التي نتعرض لها إذا أفرزت أي مكاسب ولو ضئيلة،نعتبرها من منظور الطب مكاسب عظيمة،لذا فوجودك حيّ الآن بيننا هو فى حد ذاته مكسب كبير،وهنا وعند هذه الجملة الأخيرة، كان كل من هو موجود بغرفتي وكأن عينه تطلق نظراتها لتضغط ملامحي؛كي أهدأ،الكل متحفز ليرى الجملة التالية على الأرجح ماذا ستصنع،فقلت بصوت متهدج وضعيف: نعم،ولكن أحذرك

إذا كان ما تقوله مقدمة لخبر لا أريد أن أتوقعه،لكنه بادرني بقوله:ولكننا لا نستطيع خداعك أكثر من اللازم،وأنا أصلاً كنت ضد رغبة أسرتك فى أخفاء الخبر ولو فى الفترة الأخيرة على الأقل،وهنا اختلط صوت صراخي الهستيري المتصل مع جملته التي قال فيها : ابنك فى السماء الآن .

كان الجميع يتحرك فى الغرفة فى شكل انهيار.لم أكن لأشعر بآلام جسدي وأنا أصرخ وأتأوّه بصوت يخرج من أعماق أعماقي،حتى فكرت أن أقوم لأجرى خارج هذا المكان،الذي صدمني أعنف صدمات عمري . ناسيًا أنى مبتور الساقين، والغريب في أول الأمر لم يحاولوا تهدئتي من فرط تأثرهم لمنظري.كان رد فعلهم على ما يبدو استمرارًا لتوابع الصاعقة التي نزلت على رأسي،أصرخ وأصرخ،ولم أعد قادرًا على سماع صوتي نفسه،ولست أدرى ماذا حدث،ولكن ثمّة ستائر سوداء قد نزلت على عيني،وانهارت مقاومتي تمامًا،ويبدو أنهم قد أعطوني شيئا لأنام.وعلى ما يبدو ظللت نائمًا مدة طويلة، وأذكر أن أول الوجوه التي رأيتها كان وجه زوجتي التي أطلت علىّ وأنا مستلق فى فراشي كجثة هامدة،ولكنها جثة تسبح فى بحر من الوجع والحزن .

للطب على ما يبدو فلسفات آثمة.عندما يصل إلى الطريق المسدود لوضع حدٍ لآلام المريض،يسعى لإخماده قهرًا،من خلال كميات لا نهائية من عقاقير التخدير،لتتركه نهبًا لنوم.يتمنون لو كان نومًا سرمديًا،ولكن هيهات، فحتى وأنا كذلك في حالة كبيرة من الهذيان كنت أستشعر شيئًا معينًا،لكن الواضح أن ما فقدته كان عظيمًا فعلاً،وأن الحقد الذي مورس ضدي لم يكن ليعرف أن يفصل ما بين ابنى وبيني، ولا بين ما أصنعه،وما يصنعه أعداء الإنسانية،بل

وتركني أمارس تعذيب النفس وعذاب الضمير،وأن هذا الشاب اليافع لو كان ابنا لأحد سواي، ما دفع هذا الثمن الباهظ أبدًا .

مكثت فترة طويلة مابين النوم المتصل، ويقظة نادرة الحدوث أبقى فيها صامتًا،رغم ما كان يُمارس ضدي من استفزازات لأتكلم، حتى في الأسئلة التي تبدو عادية، حينما يسألني الأطباء المعالجون عن شكوى لي، أو طلب يسعون لتلبيته، أو رغبة أتمناها،لكن لم يحدث أن فكرت أبدًا في الإعراب عن أية رغبة،حتى مع كم الآلام التي كنت أشعر بها، لم أكن قادرًا على أن أعرب عن أي شكوى.وعيوني شبه ناظرة إلى شيء ثابت،ولا تتحرك أبدًا،حتى مع وجود زوجتي وابني الباقي،لم أكن قادرًا على صناعة حوار،ولو بسيط بيني وبينهم،حتى جاء اليوم الذي طُلب منّي أن أقول كلمة لهيئة التحقيق التي كانت تتابع الحادث، والتي جاءت لتسمع أقوالي،وهنا اكتشفت واكتشف الجميع أنني لم أعد قادرًا للتعبير بالكلام عما أريد،وأن كل ما يخرج من لساني ما هو إلا هواء من الصعب أن يُترجم إلى كلمات مفهومة إلا بمجهود مضن من سامعي .

كان رد الفعل شديدًا جدًا وخصوصًا زوجتي،كادوا يصرخون من عنف رد الفعل الذي وجدوني عليه،وأنا بدوري أبكى بدموع أخرى جديدة تنعى صوتي الذي على ما يبدو اغتاله الصراخ الشديد الذي تفجّر يوم أن أعلنوا بقسوة عن موت أحب أبنائي إلى نفسي .

كنت منهارًا،أشرت لهم أني محتاج أن أنام،أو على الأقل أُترك وحدي،خرج الجميع،ولكنّي لم أستطع النوم مطلقًا،يبدو أن جسدي لم يعد يكترث بتلك المسكنات التي أتناولها بشكل يومي،كنت مستلقيًا أنظر إلى السقف،وكأنه

كتاب أصفر قديم يضم بين دفتيه تسعة وخمسين عامًا من حياة مزدحمة بأشياء كنت أعرف معظمها وأجهل الكثير منها،خيالات الأبيض والأسود،شبح لصور أب لم أعرفه،وأم جميلة وعنيدة اغتالها السُل،ومنظومة أقارب فى رقة التماثيل، وقرية على اتساعها كانت تبدو كسجن غريب،وبنوّة تُهدى لامرأة حرمها الله الإنجاب،ازدواجية السعي وراء المستقبل وممارسة البوهيمية بكل اقتدار، إسكندرية عشق الأمس البعيد.أروع ما يمكن أن تسقط عليه عين طفل فى مثل عمري وقتها.هذه المدينة التي بكيتها أكثر مما بكيت أبي أو أمى أو أمى رتيبة حتى «عمر بشير» وحلمنا،وشيوعيتنا واعتقالنا واستسلامه لواقعه،وخروجي من مصر شبه كافر بكل شيء، الغربة، العمل والسفر والنجاح،الزوجة والولد،ثم الموت.. كانت صفحات كثيرة تتطاير من السقف متى انتهيت من قراءتها،دموع كثيرة تتساقط،مشاعر ندم عارم يشد أذني،تقول في غير رحمة:ماذا بنفسك فعلت أيها التعيس؟ شهور خمسة،حتى جاء»علي» واصطحبني إلى البيت،كان يقود السيارة ويكاد لا ينظر لي،كان يهتز من بكاء يغلى فى داخله وخصوصًا عندما يختلس النظر لينظر أسفل أبيه،فلا يرى ساقيه اللذين قطعهما الحقد وسوء الظن. كنت متحفظًا،وشارد الذهن؛لا أستطيع أن أتخيل مشهد البيت ومن فيه،وقد نقص منهم ابن كان أكبر القطع من قلبي،وصلنا إلى ساحة البيت متجاوزين الحديقة الصغيرة، حتى الباب،ووجدت أصدقاء كثيرين فى الواقع،لكن عندما حملوني إلى الداخل كنت قد سرقت نظرة إلى السماء القابعة فوق منزلي،وأهز رأسي فى صورة إشفاق على صورتي الحالية،كان طبيعيًا أن أجلس بضع دقائق قبل أن أدخل لغرفتي الجديدة بالأسفل، مع

هؤلاء الأصدقاء الذين أسكتتهم رؤيتي على هذا النحو،ولكنّي تحدثت إلى «علي» وقلت له بكل قوة منحها لي صوتي:أن هؤلاء القوم إذا أصروا على رسم هذه النظرات المشفقة الراثية لحالي، فمن الأفضل أن يرحلوا .
كان الولد متفهمًا لما قلته،ولكنه بكياسة كبيرة طلب من الجميع البقاء حتى يضعني فى فراشي على اعتبار أنني محتاج للنوم والراحة، وقد كان، ودخلت معي زوجتي التي أخذت تتكلم معي وأنا تقريبًا لم أسمعها،كلمات قليلة التقطتها أذني، كن قويًا،تجاوز المحنة .. وأشياء من هذا المزاج، كلمات كانت لظروفي فاقدة الكثير من معناها،وبصعوبة بالغة سألتها:أين دُفن؟وأحمد الله أن الإجابة كانت:فى الملحق الخاص بالمسلمين فى مقابر شتوتجارت.فقلت لها : أشكرك.وإن سمح الأطباء فلتحاولي السعي لأن أزوره متى سمحت الظروف لأني افتقده فعلا . والآن دعيني أنام .
على ما يبدو ولست أدرى.. لماذا حمدت الله أنهم دفنوه فى ملحق مقابر المسلمين؟كنت أجلس فى الفترة اللاحقة لقدومي لمنزلي وحيدًا أفكر فى كل شيء، وكان من جملة الأشياء التي كنت مشغولاً بها؛ قصة الموت ذاته،وحقيقة شكله ورائحته التي شعرت بها ونحن فى طريقنا لسويسرا،انقباض قلبي وشروده،ووجهه العابث،وعيونه الناظرة للمطلق،سؤاله لي عن حقيقة معتقدنا كمسلمين،شعائرنا،وجهة نظر الغرب لنا،تقبيله لي ونحن في طريق العودة،لماذا أوصاني خيرًا بأخيه،لم يقترف ذنوبًا على ما أعتقد،فكيف كانت ليلته الأولى مع الله؟أرى أنه سيتجاوز عنه،ربما لم يصم،ولم يركع ركعة واحدة لله،لكنه كان برًا بي وبأمه،الله أكبر من أن يطمع فى الكثير من أعمال عباده،ولكنه يرضى بالقليل متى كان مخلصًا لوجهه،لكن

- واحسرتاه - كيف نتبيّن هذا الإخلاص في قلوب من نعرفهم ؟لكنني أنا الأب.إذا لحقت به وأنا مُحمل بأوزار لا حصر لها .. أليس من الصعب أن أجاوره؟نهاية مؤلمة لأب تعيس،فرّقت الدنيا بينه وبين ابنه.والآخرة فيلم سينمائي بنهاية مفتوحة.لا ندرى إلى أين سينتهي مصير البطل .

كنت راضيًا تمامًا بكل ما صاغته يد القدر.التمرد لن يفيد،وعدم تقبّل الوضع مدعاة لمزيد من الأوجاع،لكن كنت شديد التجهم والعزلة ومكتئب،والجميع يصارعون من أجل أن أعود لسابق عهدي،ولكنهم خائفون منّى،من ثورة تختبئ خلف صمتي المتواصل،وخصوصًا أن القتلة كالعادة منذ أن زرعهم الغرب كسرطان فى جسدنا،لا يتورعون ولا يرتدعون عن أية جريمة.فهم دائمًا فوق القانون .

تمضى الأيام وينفجر البركان،لكن في هذه المرة كانت زوجتي.التي لم تستطع التحلي بالصبر،وأعلنتها صراحة أنها لن تنتظر حتى أموت،وأن ما أنا فيه من حال لا يرضى أحدًا،وأنني أعذبهم جميعًا بمنظري،وأنني باستسلامي للحزن بهذا الشكل كمن يطعن فى حزنها على ولدها،فهي أولاً وأخيرًا أمه،وإن كان»عمر»خرج بالموت من حياتنا فهناك»علي»مازال حيًا،وهو أملي الباقي على الأرض،وأنه من الأجدر أن أعود قويًا كما كنت،حتى لا ينهار الجميع،وتنهار كل الأشياء التي صنعتها بكفاح لا يعلمه إلا الله،والحق كانت المرة الأول منذ زواجنا التي أرى فيها زوجتي ثائرة بهذا الشكل،وتتكلم بمثل هذا الحرص المختلط بالحزن لما وصلت له أيامي فى هذا الوقت . كنت مقتنعًا بكل ما قالت،وكنت مقدرًا لها الدوافع التي ساقتها لتحفيزي على النهوض من هذه الأزمة،ولدرجة أن قتلني بكاؤها بعد أن أنهت

حديثها المفعم بالخوف والإشفاق،فأشرت لها أن تقترب،فتناولت يدها وقبلتها،ورجوتها أن تسعى لدى» كاسلر»للبحث عن طريقة مُثلي لعلاج الاحبال الصوتية التي تمزقت عن آخرها نتيجة الصراخ الشديد،وحاولت للمرة الأولى بعد هذه الظروف أن أبدو قويًا من أجلها،ومن أجل تثبيت أركان حياة،لم يكن من جملة أهدافي أن تنهار لأي سبب،وطلبت منها أن أرى»عليًا»؛فبالضرورة أريده معي صباح الغد،ونحن بصدد زيارة أخيه فى قبره؛لأن هذه هي رغبتي المُلحة الآن،وبعدها أعدك ستتغير أشياء كثيرة في حياتنا .

وصلنا إلى المقابر،كنا متفقين على أن ألقى نظرة على القبر من السيارة،ولكنّي في اللحظات الحاسمة،طلبت منه أن أجلس قليلاً بجوار القبر،رغم صعوبة ذلك،سمعت توسلات عديدة من الجميع،ولكنّي كنت كعادتي مصممًا على هذه الرغبة،وأن الإلحاح لمنعي لن يجدي أبدًا.. ولكنهم تذرعوا بأنهم لم يجهزوا أنفسهم لرغبة كهذه،لأنها تحتاج إلى كرسي،ولكنّي قلت:لا غضاضة من أن أجلس قليلاً على العشب،لكن كونوا بجواري تحسبًا لأي شيء.. استجابوا بصعوبة وحملوني حيث الشاهد،وجلست كمن يقوم بتدريب مجهد لليوجا التي لا يفهم تقاليدها جيدًا.. كنت كمن يراه فعلا،والغريب كنت أتكلم معه بعربية مبينة،ونسيت أو تناسيت لغات أربع كنت أجيدها ببراعة،أخذت أتكلم بعنف،أبكى قليلاً ثم أعود للكلام،ومن ثم أبكى،وأعود مرة أخرى للكلام مجددًا.كان «علي» شديد التأثر ومندهشًا جدًا.حتى سمعته يقول لوالدته:أبي يهمهم بكلمات تبدو لي عربية،وهو يخاطب أخي. ماذا أصاب أبي؟ ثم بكى،وحاول جاهدا ألا أراه.

طلبت إشفاقًا عليهم أن نرحل من هنا،وعدنا إلى السيارة،وفى طريق عودتنا للبيت سألني»علي» :أبى كنت تخاطب»عمر»باللغة العربية أليس كذلك؟فأشرت له نعم،وهل هو يجيد فهم العربية ؟ وهنا وجدتني بدون وعى أقول له :ربما لم يكن يجيدها وهو حيّ،ولكن بموته سيتحدثها بطلاقة !! هنا ربما راح الولد للشك بجنوني،ولكنني كنت أشعر بعد أن قلت ذلك،أنها الإجابة الأنسب .

## صفعة الفجر

اكتشفت أنني ما يقرب من العام وأنا على هذه الحالة من العزلة،وأن الشركة رغم أنها تسير بشكل جيد،لكن الجميع يفتقدني فيها،كنت أعتقد أن الانخراط فى العمل هو الشيء الوحيد القادر على عودتي إلى سابق عهدي أو يكاد،فطلبت أن يكون هناك ثمة مندوبًا يأتي لزيارتي في المنزل يومًا بعد يوم،يطلعني على مستجدات كل شيء،ومن خلال الكومبيوتر،سأمارس المتابعة وحياتي الجديدة،من قراءة،وتواصل مع الأصدقاء.. كانت زوجتي أكثر الناس سعادة بهذه التطورات الإيجابية التي شرعت في تنفيذها،وحاولت بكل قوة أن أتجاوز هذا الوضع المؤلم الذي ما تمنيت أن يعصف بأسرة،كنت حريصًا على بقاءها ما حييت .

رجعت كعادتي في مثل هذه الظروف،أمارس جنوني المعتاد فى الجلوس أمام المرآة للحديث،ففي هذه الحالات ربما لا حاجة لي لصوتي،وكان الحديث مركزًا على مصر،لم أستطع رغم كل الظروف أن أتمكن من كراهيتها،وعدت من حيث بدأت أحدد مكمن الرفض العارم الذي كان يملؤني وقت أن رحلت عنها،عندما قمت بالفصل بين مصرالأرض والناس ومصر السياسة والنظام،وتصوّرت أن فكرة موتي فى أرض غريبة،فكرة مؤلمة فعلاً،وإن كانت ليست بالفكرة التي يمكن حسمها،مادمنا قد اعترفنا بالأقدار التي تحكم العالم .. كنت للمرة الأولى التي أشعر فيها بالملل من حياتي الأوربية كلها،وأنني يجب أن أعود،لأن من دواعي الصدق مع النفس

أن أعترف أن مصر أكبر،وليس لرغبة منفردة منّى أو من الذي حرمني فيها من أبسط حقوقي،أن أسعى لمقتها لهذه الدرجة،وأن تظل علاقتي بها مجرد ساعات قليلة في ترانزيت عابر ومن ثم الرحيل مجددًا،لكن تبقى المشكلة ابني، لا أستطيع المراهنة على الموافقة،وخصوصًا أنني قد جربتهما كثيرًا فى هذا الأمر،وعدت أجر أذيال الفشل فى كل مرة،حتى زوجتي لا يمكن الرهان على موافقتها،فهي ألمانية للنخاع،ولكن الحياة بالنسبة لها قد باتت واضحة المعالم وكذلك ابننا،ولن يتبقى إلا أنا التعيس الذي مازال يبحث له عن وطن،رغم أنه يحمل ثلاث جوازات سفر.

بدأت بعزم شديد،أرسلت مبلغًا ماليًا كبيرًا لإعادة تأسيس بيت «الدراكسة».الذي احتفظت به من جملة ميراثي ومن خلال تصميم معماري بتوقيع»عمر»قبل وفاته،وكنت أشترط على من كلفتهم ببنائه الاحتياط لأن يكون بيتًا فخمًا فخامة معقولة،و لا يخلو من بساطة أقلتني الطائرة الألمانية المغادرة لمطار فرانكفورت،و التي ستقضى ست ساعات ترانزيت بأثينا،تغاضيت عن هذه المعاناة،ولكنها الرغبة،حيث أن هذه الطائرة هي الوحيدة التي تهبط الإسكندرية كأول مكان لها فى مصر،ورغم أجواء البرد الذي لم يكن أصعب من الطقس فى ألمانيا،لكن كان الاستقبال دافئًا فعلاً،استقبلني»مبارك حسين»ومعه ابنه الأكبر،اختلطت الدموع التي نزلت من عيني،فرحًا،أم من ذلك الترحيب الجميل،ومن ثم تم اصطحابنا إلى منطقة قصر المنتزة،واستأذنت أن تكون الجهة إلى هناك بالمرور بشكل متواز مع البحر.دقائق وكانت السيارة تأخذ طريقها كما طلبت،وما أن وقعت عيني على البحر رغم أمواجه الثائرة إلا وفاضت

عيني من منظره،البحر مختلف في الإسكندرية لا شك،فرغم كل الثورة التي كنت أراها،لكن بحر الإسكندرية طيب أكثر من البحور الأخرى التي شاهدتها،وإن كنت قد أبديت حزني لنفسي على الأقل من كم التعديات التي مورست ضده،ولولا أن الوقت ليس ملكًا لمن معي،لوددت أن أمكث قليلاً،ولكنّي تراجعت إشفاقًا عليهم،لكن ونحن على باب الفندق،خرج الصوت الذي كسر الليل والهدوء،والذي شعرت معه بغيابي عن مصر أكثر من ثلاثين عامًا، وأنا تقريبًا لم أسمعه،أو ربما لم أنتبه له طيلة هذه السنوات،صوت أذان الفجر فى هذه الليلة،لستُ صوفيًا أو رجلاً مغرقًا فى الإيمان،لكنّى شعرت أن هذا الأذان كان أروع من كل من وجدتهم فى استقبالي،وإن كنت أشعر أنه استقبلني بصفعة تشبه صفعة»عمر بشير»الذي صفعها لي في مطار القاهرة قبل هذا الوقت بسنوات،وإن كانت صفعة عمرلم تكن بمثل هذه القداسة .

مكثت بالإسكندرية فترة لا بأس بها،تحركت في جميع الاتجاهات التي تبحث عن مجموعة ذكرياتي المتناثرة هنا وهناك،تغيرت الإسكندرية كثيرًا،وإن كانت المناطق التي شهدت كل ألوان الصعلكة والنزق،مازالت كما هي،لكن ببعض التغيرات الطفيفة،ذهبت بالسيارة ليلاً،ووحدي،للتجوّل في منطقة كرموز،ومن ثم كوم الشقافة،حتى الوصول إلى بيت أمى»رتيبة»كنت أسبح في بحر من الخيالات،حيث رأيتني طفلاً،والغريب أن البيت كان فى مكانه،وكما هو، وبنفس بابه الخشبي،وتلك القطعة المعدنية التي تُستخدم للطرق عليه، صمد الباب أمام الزمن،ولم يصمد الطفل الفلاح الذي استند عليه يوم أن ودّع خاله، بعد أن أودعوه حضن هذه العظيمة

الراحلة، كنت مشدوهًا وكأنني واقع تحت تأثير نداهة من نوع شديد الشجن،صافرة عمر التي كان يستدعيني بها؛لأنزل أو ليصعد هو،لعب الكرة فى ساحة جامع الميري،عم «محمد على» صانع الغرابيل،وثورته الحنونة من لعبنا.. من أسوأ وأصعب مكتسبات الإنسان ما يحمله من ذاكرة.

رحلت بعد أن تم تجهيز بيتنا الريفي،وصلت وقابلت أجيال من العائلة،معظمها لم يكن يعرفني إلا العجائز فقط،ومعظمهم إن لم يكن جميعهم وأقصد الأعمام والأخوال فيما عدا خالي» علم الدين»قد رحلوا جميعًا،كانت زوجتي و علي فرحين بشكل البيت والبيئة الجغرافية المحيطة به،ولكن غياب وسائل الراحة والترفيه كانت سببًا قويًا لم يساعدهما على حب المكان.والحق أنا أيضًا لم أكن مبتهجًا كثيرًا بشكل الإقامة فى الريف،وإن كنت بالفعل قد وصلت إلى هناك وأنا أطمع أن أستطيع البقاء وخصوصًا بعد تأسيس حلمي في مصر.

تعرضت لكم هائل من انتقادات زوجتي على شكل المقابر التي دُفنا فيها أمى وأبى على السواء، حيث بدت كمقابر شبه مجهولة المعالم،ولكنها كانت هي بالضرورة . لا- لأنهم أكدوا لي ذلك،ولكن لإحساس داخلي يؤكد أنهما يرقدان تحت هذا التراب الآن .

رحلت إلى القاهرة وقضينا ما تسنى لنا من الوقت وهنا طلبت زوجتي بعد أن أعربت عن حزنها لعجزها عن الاستمرار معي فى الإقامة بشكل دائم فى مصر،لكن باغتني علي بالرغبة في البقاء.

لم أرد أن أقوم بأي وسائل ضغط من أي نوع،نظرًا لأني أمتلك نفس أسبابها تقريبًا،ولكنّي أختلف فقط فى ظروف تواجدي المدعومة برغبة

العمل والإنجاز،أنا موجود لأن هذه الأرض هي بلدي،وبغض النظر عما أحمله من جنسيات.وعدتها بالزيارة من وقت لآخر ولكنها قالت:فلتدع الزيارة لي،لأنني سأكون أقدر عليها منك،ولن أغيب،وتمنت لي التوفيق فى المرحلة القادمة ثم رحلت .

عدت مرة أخرى للريف مصطحبًا»علي»لحين انتهاء فريق العمل من تجهيز كل شيء.

كان الريف بالنسبة لي ليس مكانًا للمتعة بقدر ما كان مكانًا للتأمل وشحذ الهمة من جديد،وإصرار منّى على تجاوز المحن التي مرّت علىّ فى الفترة الأخيرة،كنت أريد بأي شكل أن أمارس إدماني القديم على القراءة،وخصوصًا أن كل ما أحضرته معي من كتب.هي كتب متخصصة فى الواقع. تذكرت بيت كوم الشقافة،قلت في ذات الوقت أزور»رؤوف الطاهر»وأسأل عنه إن كان حيًا،أو»حمدي عليوه» الذي سمعت أنه استقر فى مصر وحده بدون عائلته؛أوالسيد العربي،أو رضوان الموجي،وبالضرورة بعض المقربين منّى .

التقيت حمدي بعد مجهود مضن، بينما كان سهلاً ملاقاة أكبر اثنين من الحرافيش: رضوان الموجي والسيّد العربي،والذين كانوا متخوفين من القدوم لسيارتي، وهم جلوس فى منطقة كامب شيزار، وإن كنت اتفقت معهم أن يزورونى ببيتي.

كانت نوادرنا وفضائحنا وسقطاتنا،والمرور على نواد»عمر»- رحمه الله- تخرج معها الضحكات التي تشبه الانفجارات، ويبدو أن جيلي لم تكن من صفاته الفضول المقيت،فرغم أنى أبدو أمامهم كسيحًا؛ ومع ذلك لم يفكر أحد منهم

أن يسألني عن السبب وإن بادرني أحدهم بسؤال يتجه به بعيدًا عن السبب الحقيقي،فرضوان -مثلا- سألني إذا كنت مريض بالسكر أم لا .وأجبت:لا بالطبع،بينما السيد العربي داعبني بأسلوبه الجميل حين قال:ساقك ابتلعها قطار أبي قير الألماني.وضحكنا جميعًا.

هم طيبون رائعون،الزمن رغم قسوته عليهم،لم يكترثوا به،وإن كانوا بعد أن توقف الضحك كرروا السؤال:لأ - صحيح .. ماذا حدث لساقيك؟ فقلت أنها من مضاعفات السكر.ظلوا لفترة قريبة يزوروني بشكل منتظم حتى انتقلت للقاهرة بشكل دائم.

"رضوان"بعدها ماتت زوجته،ورحل للإقامة مع ابنته الوحيدة فى السعودية. بينما ظل السيد العربي في مكانه في الحضرة حتى علمت بوفاته بعد ذلك بفترة،ورحلت أنا في دوامة العمل المتواصل لأهزم متاعبي،وظل حمدي يتواصل معي بشكل جيد،في تلك الفترات التي يتواجد فيها في مصر .

ذهبت إلى كوم الشقافة،عندما فكرت بشكل متفائل نسبيًا أن كتبي التي أودعتها في البيت مازالت موجودة.. وصلت إلى هناك مع الغروب تقريبًا،وكنت في حالة من الشجن الضاغط، كنت أتمنى أن أكون قادرًا على النزول ومصافحة أهل البيت،أو من تبقى منهم،وصعد رجل دعوته لأن يسأل عن واحد من أبناء الخولي،والذي نزل إلينا وعرفته بنفسي،وتذكرني بشكل جيد،والغريب أنني ما أن تحدثت معه إلا وبادرني بقوله لا بد أنك جئت لأغراضك القديمة هنا،فقلت حتى أدفع عنه الخجل:ما توقعت أن أجدها،وإن زيارتي في الأصل للزيارة،والسؤال،ولكنه أعلن بثقة أن كتبي مازالت هنا، فرحت جدًا،فقيمة الكتب لم تكن هي ما يشغلني، وإنما ما

كتبته فى هوامشها من ملاحظات أثناء القراءة،كنت مشتاقًا لها فعلاً .
صعد الرجل وحمل الكتب وبعض الكشاكيل التي كنت أقوم بتدوين بعض المعلومات فيها،ربما على ظني لم تكن كل الكتب،وإن كان ما حصلت عليه معظمها،وسألت عن الشقة فقال مفتوحة للأحفاد والضيوف،ومازالت مقتنيات الراحلة العظيمة فيها.. سجادة صلاتها وطرحتها والعصا التي كانت تستخدمها فى أيامها الأخيرة،فاستأذنت في شيء منها،فكان كريمًا معي،وأحضر لي العصا التي احتفظت بها كقطعة أثرية نادرة .
عدت إلى الدراكسة أمارس إدماني القديم في القراءة،وأذكر أن أول ما قرأته،العجوز والبحر؛وشعرت أن(سنتياجو)بطلها يشبهني إلى حد كبير،حيث آلت حياتي إلى نفس المآل الذي انتهت به حياته،سمكة ضخمة لم يتبق منها إلا هيكلها،ليظل إلى الأبد ذلك الصيّاد قليل الحظ، وتذكرت شخصية(سبنسر تراسى) وهو يجسد دوره على الشاشة،وكيف خرجنا أنا وعمر من ساحة سينما مترو نتناقش فى جدلية النفس الإنسانية التي عبر عنها «هيمنجواى» ببراعة، وأخذت أراقب الهوامش الكثيرة والمقتطفات الزجلية الرائعة التي كنت أسجلها.

## المحاكمة

منذ أن استقبلت خبر وفاته،الذي كان واحدًا من أعنف صدماتي التي صادفتها،لم أكن أتصوّر أنني من الممكن ذات يوم أن أعود إلى مصر،وأتحمل مشهد دخولي لمقابر العامود بمنطقة كرموز،والجلوس إلى قبر"عمر بشير"،أو قبر رتيبة،كان يومًا مشهودا،وبكيت كما لو أنى لم أبكِ من قبل،كان البكاء بصوت مرتفع فيما يشبه التوجع.ولم أتخيّل لقاء هذا الصديق الثالث،الذي كان شريكًا في كل الشباب،وما مرَّ به من منعطفات إلا في مناطق بعينها؛حيث أشترك هو في حرب اليمن وأصيب فيها،ونحن و"عمر"لم نشترك فيها،لكننا دخلنا إلى تجربة الاعتقال،وهو لم يُسجن ساعة من وراء شيوعيته .

عوامل كثيرة كانت وراء انهيار ثلاثة معان في نفسه دفعة واحدة،الطرح الشيوعي،اليقين بالمرحلة كلها،الحلم الناصري،وما كان موجودًا في نفوسنا من آليات تحقيقه،والأسباب: حرب اليمن وما صاحبها من ظروف،إعدام السيد قطب،الخامس من يونيو، تجربة اعتقالنا أنا و"عمر"، ولقاؤه لنا بعد خروجنا في "بالاس"،والأشد قسوة يومها ما قاله فيما يشبه الردّة عن كل شيء سبق وأن آمن به .

بعد هذه السنوات الطويلة الطويلة،حاولت النظر إلى هذه المنظومة التي جمعتنا؛كي نبحث لنا عن مكان تحت الشمس،ودائمًا وأنا في الساعات الثلاث التي تسبق السادسة من صباح كل يوم،أجول بخاطري في هذا الماضي .لا يمكن تجاوز الجمال الطبيعي الذي تظهر عليه الإسكندرية في شهر يناير وشهور الشتاء عمومًا،جلسنا وكانت أول جملة قالها لنا ونحن نراقب

شارع صفية: ماذا تعتزمون ؟
كان"عمر"يجلس شبه غائب عن الوعي،وأنا كعادتي أعصر جبهتي من أطرافها،وأكسر بعض الملل بكوب من البيرة المثلجة،وخصوصًا إذا كنت بصدد الإجابة عن سؤال بهذه الروح عمومًا . ضحك "عمر" حتى السعال،واعترف بالصدق إننا لا نعتزم القيام بشيء، لأن التجربة كلها قد قتلت العزيمة.وكان "عمر" بحديثه وملامحه يعكس لي اليأس بجلاء واضح،وما كنت لأرى يأسًا بهذا الشكل الذي رأيته على ملامحه،ونبرات صوته القريبة من الهذيان، وخصوصًا أنه كان يعلم أنني بصدد قرار حاسم ومصيري يتجه بفكري إلى ترك البلد برمتها،كان يتوقع متّى نهاية تعنى أن الحياة في مصر قد باتت مغامرة غير محمودة العواقب،ففي نهاية العقد الثالث،وكنت أشعر بشيخوخة،وحالة من حالات الزهد في كل شيء.بادرته برأي في المسألة:يجب البحث عن مقبرة جديدة للأحلام؛فصعب أن نُدفن في أرض من قتلونا . وأخذنا نضحك ضحكًا مصطنعًا،لا يخلو من هستريا. أما هو،فقد قالها على غير المتوقع منه:محتاج أن أعبد ذاتي قليلاً، فهي لا تخدعني عادة .
كانت مشكلة "مبارك حسين" والتي كنا نعيها جيدًا في غاية التعقيد،الانتماء لنموذج أمومي في غاية الصعوبة،في المرة الأولى التي دخلنا فيها بيته،والذي كان كائنًا وقتها في "محرم بك" قبل الانتقال إلى حي أرقى .منظر والدته، والتي كانت تختلف كليًا عن والدة "عمر" و رتيبة بالطبع .
كنا مراهقين،ولنا تصورات غريبة تفرضها فرضًا طبيعة السن في هذه الفترة،الأمر الذي جعل "عمر" يشك للحظات إننا بصدد امرأة مُنحلة . وهذا لم يكن صحيحًا، بل كانت ممثلة أكبر منها مُنحلة،بل وتطرفتُ يومها

حيث ظننت إنها امرأة تخفى مشكلة،أو آفة نفسية معينة .
سنوات قليلة وكنت أدخل بيتهم كل يوم ثلاثاء؛لأذاكر الرياضيات لشقيقه وشقيقته،دون المساس بمعنى الوفاء لصديقنا،حتى وإن كنت أجيد تلك المغامرات،المبادئ لا يجب مطلقًا أن تكون عرضة للمساومة والمتاجرة بها،رغم أنها كانت جميلة فعلاً، لولا تلك الأرداف المكتنزة والتي أمقتها عمومًا .
شخصية هذه المرأة كانت محورًا مهمًا،نختبر به قراءتنا في علم النفس،ولقد كان"عمر" صاحب فضل في هذا المضمار،عندما أهداني تفسير الأحلام لـ فرويد ؛والغريب إننا لم نكن نرى أباه،رغم أنه حيٌ يرزق،ربما لطبيعة عمله كرجل عسكري في السواحل،ولكننا وهذا الأغرب،لم نكن نسمع "مبارك" يتكلم عنه أصلاً .
اتفقنا فيما بيننا،أن هذا النموذج الإنساني نموذج جد متشابك،تمتلك نفسية لعبت عليها العديد من الظروف كانت ممثلة بارعة،أجادت كل الأدوار،وخدعت الجميع بما فيهم نفسها،وسر نجاحها أن رواد المسرح الذين يشاهدونها كل ليلة في عروضها الهزلية،منافقون لدرجة تدعو للاشمئزاز الحقيقة التي كانت تتوارى عن أعيننا نظرًا لحداثة سننا،أنها امرأة تافهة،جمعت بين خسّة الطبع؛والمرض النفسي،مدّعية في كل الأحوال،تبدو كامرأة متدينة؛في حين لو إنها ركعت ركعة واحدة لله،لاكتشفت المعنى الحقيقي للإيمان،أرادت أن تكون سيدة عظيمة،فكانت مسخًا مشوهًا لسيدة منحطة الفكر والإنسانية.لا تكاد ترى نفسها،ولا تجد من يساعدها،وربما يعود ذلك لمحيطها الاجتماعي الغريب،ترفض الحياة وترفض القدر،أوهمتها الظروف

أنها ملكة على العرش،فكانت تجسيدًا حيًا للكذب في قمة صوّره .
حاولت أن تكون عظيمة..إن للعظمة شروطًا،فالشخصيات العظيمة تولد وبداخلها بذور هذه العظمة،تلك البذور تعلن عن نفسها مع الوقت والمواقف،فكيف تأتى لها وهى في الأساس ابنة الفقر،الفقر الشامل،الفقر الخبيث وليس الفقر الحميد.فقر النفس الذي يولد إحساس عارم برفض القدر،سيدة مصطنعة بشكل مقزز.
علمت أنها امتداد طبيعي لأمها،جدّة "مبارك حسين". كان أجمل ما فيها هندامها،مع أنها نموذج أمومي غاية في الفشل؛كل إنتاج أخرجته للحياة نموذج حيّ للتصنّع،وأداء تربوي غاية في الغرابة،سلبت زوجها حقوقه فى إدارة الأسرة التي يحتل هو قمتها؛من الصعب أن نتخيّل المرض النفسي عندما يريد تأسيس مملكة أركانها الكذب،وجنون العظمة،الكبرياء الوهمي،اللوبي وأروقة الكلام،وتجنيد العملاء،وحروب لا طائل منها،ولكن لابد منها؛ففي مثل هذه الظروف المعقدة لا يوجد سوى الكلام .
آمنت أن والد "مبارك" قد مات حيًا؛وبدعم صريح من أمه،فتقلّد هو مقاليد الحكم، وهو بالتبعية كان نموذجًا إنسانيًا آخر غاية فى التعقيد،بدون قصد أو ترتيب تحوّل إلى الإله مركز الكون،عشق المسألة فاستحق لعنة كل من عبدوه،وخصوصًا في محيط أسرته،وكعادة هذه الأسرة وكما عرفتها،أشد جبنًا من مواجهة الظالم بظلمه،فعاش الكذبة بتفاصيلها،وكان من دواع الطاعة لهذه الأم،الانصياع الكامل له كأخ كبير،في حين كان خليقا بهم وبه،إعادة الحق لأبيهم .
إننا لا نملك غير الإذعان،ونتحلى بشعور الرضا والغبطة،كي حتى تستمر

الحياة بدون منغصات،فالفقر ليس عيبًا في فترة كان الفقر فيها سمتًا غالبًا،وكان الثراء على الجانب الآخر استثناء.

هنا تتسلل مشاعر الانحطاط ،والشعور بالدونية،تبدو في هذه الحالة الحياة كحرب،قوامها الرفض،وجنودها الدائمون التطاول على القدر،يصبح سلاح الحرب الحاسم الوحيد،الحسد والنظر لما عند الناس،دون غبطة أو شكر وافر الإخلاص،ثم حيّل دفاعية،الكذب لتغطية القصور،أحلام اليقظة،تشجيع من يسعى لتعديل الصورة،استبعاد النماذج الفاشلة،تصنّع أسلوب للحديث،المبالغة في التهندم،إسقاط العيوب على الآخر،محاولة إظهار نجاحات لا وجود لها،من هنا كانت دولة الأم .

هنا كان"عمر"يضع حجر الأساس في كراهيته؛ربما انتهت حياته وهو يمتلك برجًا شاهقًا من الكراهية،حيث كان "عمر" بوجه عام يكره التصنّع،ويناصب كل المدّعين العداء،وهو بدوره شعر بذلك،وبدلا من أن يحاول تعديل الصورة،ظل كما هو المثقف النهم الذي يريد فقط مصارعة"عمر"وأفكاره،بغض النظر عن كونه مثقفًا كبيرًا،والغريب أنه لم يحاول استفزازي مطلقًا،رغم معرفته اليقينية إنني بالضرورة مثقف إلى درجة مقبولة،لكن ومن منطلق رؤية اليوم تحديدًا لما كانت عليه علاقتنا،إنه لم يكن يجد في تواجدي معهم أي شبهة من تنافس،بل كانت علاقتي معه بشكل خاص تتجه إلى صياغات علاقات عاطفية مع العديد من النساء،وعلى اعتبار إنني على حد تعبيره:صاحب رزق عريض .

عندما حضرت للإسكندرية بعد هذه السنوات،كان لزامًا أن أجلس معه، بعد أن استقبلني بحفاوة في المطار،كثاني شخص في الثالوث القدري،مازال

يشاركني الحياة،بعد أن خدعنا"عمر"وأبى واستكبر أن يموت بفعل القدر،فمات بإرادته المنفردة في واحدة من انتكاسات الذات أمام طوفان الحياة التي لا تحتفل عادة بالعباقرة .

سعيت فى طلبه بعد أن استقرت الأوضاع،والتقينا معا في مكان،كل من صادقتهم يتفقون على محبته"ريانون"أتى كعادته طويل رشيق متباهى بأنجليزيته،يحمل"الجارديان"في يده،لم أكن أستطيع النهوض لتحيته وعناقه،لكنه انكب يمطرني بقبلاته والدموع تطفر مجددًا من عينيه.تعاطفت معه، ومع ما بدا من علامات الزمن التي تسيطر على ملامحه.جلسنا لساعات لا نعلم عددها،كانت معظمها عن"عمر"والمغامرات النسائية،والبليار دو،و"لورا"وأجندة ممتلئة عن أخرها بالأسماء التي تآكلت من الذاكرة .

كان يتمنى أن يكون"عمر" بيننا؛ليكتمل المثلث؛لكنني كنت قبل دقائق معدودات من لقاءه،غير مهيأ لأن أسامحه على ما كان منه تجاهه،والتي كانت غالبًا استفزازات كريهة،معظمها من أجل استنفاره للحديث،والثورة على السكوت الذي كان يغلف جلساتنا في معظمها،وخصوصًا بعد خروجنا من تجربة الاعتقال .

كان"عمر"مثقفًا جدًا،ومتحدثًا جيّدًا،وقادرًا على التوصيل دائمًا،شأنه شأن كل شيوعيي عصره،وهو كذلك،لكن كل عناصر التشابه بين شخصياتنا تتلاشى أمام شعور"عمر" العارم بالفقر،كنت وصاحبنا،ممن يمكن اعتبارهم منتمين لأُسر مستورة ماليًا،وكانت هذه المسألة من أكثر الأشياء التي تؤثر في"عمر"وتُشعره بشكل مؤلم بمدى غياب العدالة من وجهة نظره،رغم إننا لم نكن حريصين من قريب أو بعيد أن نبدوا أمامه شبه متفوقين عليه في

شيء عرف "مبارك" الثراء بعد وفاة عمّته،والذي لم يكن له من أولاد،فاستحق أبوه ثروة لا بأس بها،وعمته كذلك،ومن هنا رحلوا من محرم بك،إلى سكن جديد بلوران .

كانت تجربة اعتقالنا من أقسى التجارب التي مرَّت
علينا،وخصوصًا"عمر"والتي عمّقت لديه حساسية الصدر،وبعض المشكلات العصبية الأخرى،وشعور مستمر بالامتعاض من كل الظروف .كانت ملامحه تحمل جاذبية المأساة.وكان مثلي،لم يكن مفرطًا في الوسامة،ومع ذلك اندفع عاطفيًا في علاقته مع فتاة وأحبها بعنف،وإن كنت للآن لا أعرف . لماذا لم يتزوجها ؟رغم إنه كان يستطيع ذلك.ولم يكن هناك ثمّة استحالة لتحقيق هذا الحلم .

لم يكن يحمل جرأتي وجرأة "مبارك" على القيام بمغامرات عاطفية
مدروسة،مع بقاء عواطفه فى اتجاه الفتاة التي يحبها،وكانت فرصة لقاء "مبارك" فرصة جيّدة للسؤال عن هذه المعضلة،التي ظلت تؤرقني كثيرًا وأنا بصدد مراجعة تاريخنا معًا،وحتى بعد غياب"عمر" الذي كان واحدًا من أشد صدماتي عنفًا وقوة .

أشد الجُمل التي قالها"مبارك" في هذا اللقاء ألمًا، عندما أعلن عن رغبته فى عودة"عمر"لدقيقة واحدة،ليعلن له أنه بالضرورة كان يحبه ويحترمه،وأن كل التجاوزات التي مارسها معه،لم تكن إلا لتحريضه على أن يعيش حياته بشكل إيجابي أكثر مما كان عليه،وبدأت الدموع تظهر مجددًا في عينيه،وأنا بالفعل وجدت نفسي أبكى لبكائه وأبكى صديقي معه .

لماذا كان"عمر"يشعر بأنني أكرهه ؟

لم أفاجئ بسؤاله،بل كنت أتوقعه،ولكنه أردف قائلا .. تُرى هل كان يحبك ؟إن السؤال عن العواطف واتجاهاتها من الأسئلة الصعبة،وربما كنت أمتلك الحسم في إبداء أسباب كراهية "عمر" له.وإن كنت جد عاجز عن تحديد مقدار محبته لي.

كان "عمر" من أولئك الناس الذين يؤلمهم تصنّع المشاعر،وكان مؤمنًا بكل ما هو طبيعي،وخالٍ من التدخلات البشرية المقيتة،وكانت هذه السمة هي أول السمات التي جعلته يكرهه لهذه الدرجة.. الغريب رغم استقلالية شخصية "مبارك" ووضوحها بشكل كبير،لم أكن أفكر وقتها لماذا يحاول دائمًا أن يكون مسخًا من "عمر"أو متّى أحيانًا؛رغم أنني لم أكن متفوقًا عليهم في شيء،بل كل ما كنت أتميّز به وقتها صحة البنيان والطول،وبعض الجاذبية،ومهارات خاصة في التعامل مع النساء عمومًا،حتى من أنهيت علاقتي بهن،على الدوام يسألن عنّي ويبدين احترامهن لي متى ذُكر اسمي .

بينما"عمر"رقيق الحال،ومثقف ومبدع بلا جدال،وكان له قدرة غريبة على الزعامة،وإن كان يحتاج دومًا إلى وزارة دفاع بجواره تحسبًا لثورة الجماهير متى تطرف فى أفكاره،بالإضافة لوزارة مالية أحيانًا؛تحسبًا للقاء في مكان مميز أو ما شابه.كان شيوعيًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى،وحتى"مبارك" كان يشاركنا شيوعيتنا؛وكان مخلصًا تمامًا للطرح الناصري بكل مشتملاته،ولكن بعد حرب اليمن تغيّر الكثير،بل انهارت قناعاته بشكل كامل أو تكاد.

كان المنعطف الأساسي الذي دائمًا ما يفجر التناقض بين شخصيتهما،موازين القوة،حيث إن "عمر" قياسًا على قوة وصحة بنيان "مبارك" لا يمكن مقارنتها مطلقًا،وكان "عمر" يعلم ذلك، لذا كان حريصًا ألا تصل خلافاتهما معا

لمرحلة اشتباك بالأيدي، وخصوصًا إذا كنت غائبا لأي سبب.
كنّا معا في زيارة صديق لـ "مبارك" أو للدقة صديق لوالده؛ولقد استحق موعد الدين المالي المستحق لوالده،في ناحية القبارى،لا أذكر كثيرًا من تفاصيل هذا اللقاء،ما حدث فيه،لكن فهمنا يومها أن صديقنا وإن كان قويًا،لكنه شديد الجبن،فمجرد ثورة أبداها الرجل،لمحنا شكل الخوف فى ملامحه،وإن كنت على كل الأحوال جاهزًا لممارسة بعض الفنيات التي تعلمتها من بعض الرياضات العنيفة،وربما هذا ما دفع صاحبنا للاطمئنان ولو قليلاً.
كان الأغرب هو رد فعل "عمر" حين علم أن صاحبنا يخاف،ففي مساء هذه الليلة ذهبنا إلى كوم الشقافة حيث منزل رتيبة،وتناولنا عشاءًا فاخرًا من يديها الطيبتين،وجلسنا معًا في غرفتي حتى باغتني في ثنايا الحديث بقوله :تُرى لو ارتكبت جريمة قتل،هل سيؤثر ذلك فى علاقتنا ؟
فقلت:لا غضاضة من مسألة التأثير في علاقتنا،ولكن القتل نفسه مسألة جديرة بالتفكير ؟
قال:إذن لن تتأثر؟
قلت:لا أظن،لكن من سعيد الحظ الذي ستقتله ؟
فقال وكانت إجابته مدهشة حقا:"مبارك".
قلت:إن شكله الخائف أغراك على هذا التوجه،ولكني لا أستطيع تشجعيك على قتل خائف،أريد لك قتلاً شريفًا.الغريب أنه ظن إنني أمازحه،فى حين كنت جادًا.اعتقد أنني ربما لا أكترث بقتل صاحبنا،ولكنني كنت أضع تصورًا مؤلمًا لكم المأساة التي يعيشها "عمر" واقعيًا،من شعور كامل بالعجز

والضعف أمام مظاهر قوة الآخر عمومًا .
أعترف أن مملكة الحلم الرومانسي قد تحطمت أو تكاد في شبابنا،فلم نعد نشتاق لرؤية ذهب مع الريح،ولا القراءة لشاعر الكوخ،أو الجندول،كان الوقت لسارتر ودي بوفوار،الوجودية،والماركسية.اليسار الذي يعانى من أجل تثبيت عقائده،كنت بدوري أتمرغ فيما بقى من آثار للتواجد الأجنبي في مصر،ولا أعرف السبب.وكان "عمر" قد وجد ضالته في الأدب الروسي الذي كان موجودًا كالخبز؛ويحاول ككاتب قصة تأصيل موهبته في زمن،كانت الثقافة ذاتها قد تعسكرت.
كانت الحياة بسيطة والفرص موجودة،وكلنا جاهزون لخدمة المشروع فى ظل تجربة اشتراكية غير واضحة المعالم؛تتخبط دون شعور حاسم بتخبطها،من فرط الغرق فى الحلم .
كنت أحمل فى روحي رفضًا حاسمًا ضد كل ثابت،للدرجة التي انسحب رفضي فيها لصوت أم كلثوم نفسه،على اعتبار أنه ثابت،مادامت هذه الجماهير تلتف بهذا الشكل في خميسها الأول،وصوتها المقدس !ويسيطر علىّ وقتها أدب الجيل الضائع،موسيقى الجاز،وهذا التخبط،وربما أصّل لدىّ هذا الشعور عندما منعتني بلدي من أن آخذ فرصتي كرجل يريد أن يصبح مرموقًا في مجال يحبه حد العشق.وقضية الانتماء تسيطر بعنف على فكر الشيوعيين الحقيقيين،والذي كان لديهم أجندة محددة،وليس الشيوعيون العاديون .
"عمر"يعمل وكذلك"مبارك"وأنا عاطل عن العمل.ولا أسعى،أقتات من تلك الأموال الطائرة القادمة من الريف،ومن رتيبة،ومن هواية ومهارة صارت لي مهنة فى بعض الأحيان"البوكر"،وكانت نفسي تطيب لهذا الوضع،رغم رفضي الداخلي لهذه الحياة.
كنت أحتاج لصدمة،حتى ولو كانت كارثية لإعادة الاتزان الذي أفتقده من مجرد التسليم بالفشل أمام طوفان وضع،وواقع مأزوم،لم يطل

انتظاري وجاءت ٥ يونيو،وكما كنت أتوقع تمامًا من هزيمة تحمل معنى الكارثة،والفضيحة.كوب من ماء مُثلج فوق رأس مخمور،لم تكسرني ٥ يونيو بقدر ما كسرني وقتها درجة الصدمة التي تعرض لها"عمر"نفسه،والذي اعتبرها هزيمة شخصية لكل أحلامه.فى تغيير شكل حياته ومستقبله،من كل النواحي.

الغريب أن درجة تفاعلنا مع الخبر كانت ونحن واقعيًا فى غياهب العاصمة نبحث معا عن فرصة لنشر ما كتبه من قصص كان جديرًا أن تنشر؛لأن فيها بالتأكيد ما يستحق،وعدنا إلى الإسكندرية ووصلنا لقهوة السلطان حسين بعد اختراق شارع صفية،وجلسنا حوالي ساعة نشرب القهوة ولا نتحدث،في هذا اليوم"زخاريو" صاحب المقهى اليوناني رفض أن يسمح للعامل أن يأخذ منّا حساب ما شربناه،من فرط تأثره لمنظرنا،أو لربما من فرط حزنه لما وصلت له مصر الذي كان بالتأكيد يحبها مثلنا،لكن بعد فترة من السكوت الطويل بدأ"عمر"حديثه ودخل للحوار من مدخل لم أكن أتخيّل أبدًا أن أسمعه منه؛حيث قال : يوسف .. لم أرَ فى حياتي إنسانًا يملك قلبك الصلب،لا.أنت لا تمتلك قلبًا أصلاً،أنت تكره هذه البلد وهؤلاء الناس،وكافر بكل شيء،ولولا حبك لي،وهنا بكى بشدة وهو ينطقها،لأعلنت كل آيات الشماتة فى كل ما يحدث حولنا،فقمت ولم أنظر إليه،كانت تعتمل فى نفسي رغبة شيطانية فى أن أكيل عليه لكمات كان من الممكن أن تقتله،وأخذت طريقي عائدًا لكرموز،وكان عاقلاً جدًا كونه ظل بالمقهى ولم يلحق بي.

في صبيحة اليوم التالي،كنت و"مبارك" نتناول الإفطار معًا فى بالاس

ونشرب بعض القهوة، ونصحني يومها بألا تأخذ منّا الأحداث مبلغها؛ونحاول- وأنا تحديدًا - تجاوز ما حدث بمشروع جديد لحلم جدير بالتضحية،لم أندهش من كلمات المواساة التي يبديها فى هذه اللحظات،لكن أدهشتني نبرة الحكمة الحزينة التي كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه عليها .كنت أستمع إليه بجدية وتفاعل مع ما يقوله.حتى ظهر "عمر"قادمًا نحونا، فقمت ملقيًا الحساب على طاولة صغيرة واعتذرت لـ "مبارك"بوجوب الانصراف لمباشرة طلب لـ"رتيبة".

بالفعل لم أكن قادرًا على متابعة"عمر" فى رأيه الذي أخذ شكل التشكيك فى فكرة الانتماء ذاتها،وتلميحه إنني أحمل تلك الحقارة والخسَّة فى مركبات نفسي،لكن كنت أحمل رغبة مضادة تقول لي همسًا :إنه "عمر"،وليس سهلاً تجاهله مهمًا أخطأ فى حقي،ولكن كنت محتاجًا أن أعتزل شكل هذه الحياة عمومًا،حتى أهتدى لحل حاسم لمشكلتي.

لم يبدِ"عمر"رغبته فى أن يوقفني ونتحدث،أو لنستدرك حديث أمس؛وانصرفت يومها واختفيت أسبوعًا؛ما من أحد يعلم عنّى شيئًا،وإمعانًا في الهروب،تعللت لأمي رتيبة بالذهاب إلى سفر عارض مع بعض الأصدقاء،واختبئت عند"لورا" فترة،أعتبرها من أطول الفترات التي مكثت فيها عندها،وأجملها معًا .

كنت أفكر فى شكل رد فعل"عمر"أو"مبارك"عندما تطول فترة غيابي.قلت "عمر" وحده سيكترث،والآخر لن تعنيه الأمور فى شيء،والغريب ونظرًا لأنها تعرفه،نادتني"لورا"وقالت لي:"مبارك"بالباب ويريدك،وكان من الغباء أن أندهش.وأسأل .. كيف عرف أنى هنا ؟.

قمت من مكاني،وطلبت منه الدخول ورفض،فاستأذنت منه أن أرتدي ملابسي وعليه أن ينتظرني فى مدخل شارع"فيردى"حيث تسكن"لورا"ومن بعدها إلى حيث يريد .

وصلت إليه ورجوته ألا تكون وجهتنا بالاس،ووافق بإيماءة ومشينا معًا دون أن يتكلم واحد منّا،حتى وصلنا للقهوة التجارية، ودار حديث طويل. لكن تظل هذه الجملة التي قالها واحدة من الجمل التي أعادت لي كثيرًا من اليقين فى مدى الصداقة كمعنى نبيل يربط بيننا،بغض النظر عن كل الخلافات والاختلافات التي كانت تتم فيما بيننا بين الحين والآخر :

تعرف يا يوسف .. اكتشفت فى هذا الأسبوع إنك صديق مهم،وضروري وجوده فى حياتي.ثم عاد ليقول أنه بلغه من عم جاسور فى بالاس أن"عمر"هو الآخر مختفي،وإنه بدوره قد ذهب إليه فى منزله بشارع النجوم،ووجده متعبا للدرجة إنه لم يقم لمقابلته .

أنهينا جلستنا،ورحلنا معا لمنزل"عمر".استقبلتنا والدته التي نادته،والذي قام لمصافحة "مبارك"من وضع لا يراني منه،وطلب منه الدخول،فتعلل بأن معه صديق آخر يريد رؤيته والاطمئنان عليه حين علم بتعبه ومرضه،وقال لحظتها: ليدخل .

دخلت وكانت والدته تعرفني فقالت:أهلا،فما أن سمعها حتى دخل لغرفته وأغلق الباب من الداخل ثائرًا رافضًا الحديث معنا،فما كان منّى تحت ضغط الخجل سوى أن رحلنا خارجين من البيت.مع مزيد من اعتذار"مبارك"على ما سببه لي فى هذه اللحظات من إحراج .

سبحت في تفاصيل هذه الحادثة وما بعدها،وأنا في حال انتظار"مبارك"

في "تريانون" أتذكرها كنوع من التدريب على مقابلته بوجه لا يحمل معنى العتاب أو الرفض .

يوم أن رحلت من هنا،كان"مبارك" و"عمر" على مشارف الثلاثين؛لذا فإن "مبارك"حين قالها لي صريحة:إنه اكتشف إنني صديق مهم تواجده فى حياته،في فترة اعتبرتها فاصلة،لا في علاقتنا كأصدقاء،ولكنها فاصلة في حياة جيل كامل،كان بالضرورة يعنى ما يقوله،وعندما أقوم بتحليل رد فعل "عمر" الغريب والمبالغ فيه وانهيار ثقته فى كل شيء حتى صداقتنا،وولائي فى هذه الفترة التي أعقبت ٥ يونيو،لم يترك فى نفسي رغبة رافضة له عمومًا،ولكنه أعاد لي معنى ظننت يومًا إنني قد تركته هناك،في قريتي الرابضة حيث البعيد،من معنى التوحد واليُتم والشعور العارم بالغربة .

كانت الحالة المالية قد وصلت لطريق مسدود،ونظرًا لهذا الجفاء الموجود بيننا،لم يكن سهلاً عليه أن يسألني بعض المال لقضاء ما عليه من التزامات،فذهب وهو مُرغم ليسأل "مبارك"بعض المال،وقطع له وعدًا بأن اليوم لن يمر،إلا وعنده ما طلبه ويزيد،وعلى اعتبار إنه فى انتظار المال فى أي وقت .

التقيت"مبارك"في بار" إيليت " وحكى لي الموقف الخاص بظروف"عمر"المالية،وتعلل بأن ما لديه من مال الآن تحديدًا لن يكفيه حتى لو أعطاه كل ما يحمله.

هنا كان ضروريًا أن نبحث عن" توفيق نجيب"وكان محاميًا مغرمًا بالبوكر؛لعله يدبر لنا جلسة للعب،غير الجلسات المعتادة التي بات روّادها يحتاطون كثيرًا لوجودنا كلاعبين،وذهبنا إلى بنسيون "ترمينوس" فى ناحية"

سيدي بشر"وكان يدير اللعب صاحبه "حافظ "،وكنّا في قمة التركيز من أجل المكسب،أو الحيلولة دون خسارة ما فى جعبتنا من مال،فنحن نريد الربح ومساعدة "عمر".هكذا كنّا نفكر ونخطط .

من العبث أن أقول فى هذه السطور وخصوصًا إنني لا أريد أن أقف موقف من يسدى نصيحة للاعبى البوكر من الناشئين،فمهارة لاعب البوكر ترتكز ارتكازًا شديدًا على دعامتين:الذاكرة القوية لتفاصيل المائدة،والقراءة الجيدة لوجوه اللاعبين .

فى هذه اليوم خرجنا من اللعب ومعنا ما يربو على الستين جنيها،ستون جنيهًا كانت كفيلة بشراء قطعة أرض لا بأس بها فى نفس المكان الذي لعبنا فيه.كنّا في حالة جوع شديدة فتناولنا بعض الطعام، وتوجهنا مباشرة إلى " كرموز" حيث بات ضروريًا إن يذهب"مبارك"إلى"عمر"ليعطيه ربما أكثر ما طلب .

رافقته إلى هناك،والواضح أن"عمر"لم ينم،كنت أراقب المشهد عن كثب ودون أن يراني وهو في مدخل البيت،لم أشعر فى لهجة "عمر"ونبرات صوته الضعيف شيء من السعادة،أعتقد أنه أعطاه حوالي عشرين جنيهًا أو أكثر بقليل،فكل حصيلة اللعب كانت مع "مبارك".وبعد أن انتهى ذلك المشهد السريع قال"عمر"لـــ "مبارك":ربما ستعانى من عدم قدرتي على سداد هذا المبلغ، لكن اعلم أني أيضًا أعانى لأني احتجت لك .

هنا دخلت إلى مدخل البيت وأنا على أتم الاستعداد لقتله مثلما قتل"مبارك" بهذه الجُملة،دخلت فوجدت الوجهين فى قمة الأسى،ولكن لسببين مختلفين،وبصوت يشبه الصرخة قلت لـ"عمر":أنت ستخسرنا بهذه

الطريقة،لا أتخيّل إنك تكرهه لهذا الحد،لقد غامرنا بجنيهات قليلة من أجلك،وأنت تشكره بهذه الكلمات المؤلمة ؟.

هنا قال وهو ينظر إلينا والدموع تسيل بشكل فجائي ورهيب،وجسمه النحيف يهتز بشكل كامل:اتركوني أنتقم من الدنيا فيكم،فأنا أضعف من الانتقام منها،فأنتما وحدكما من أثق فى تسامحهما معي،أما الدنيا فلا أظن .

هنا رأيت بأم عيني"مبارك"فى صورته الأولى التي خلقه الله عليها،طيبًا رائعًا ونقيًا،وكانت المرة الأولى منذ عرفته وربما الأخيرة أن أراه يبكى وهو الصلب والقوى والشرس.ولست أدرى لماذا كنت صامتًا من هذا المشهد والذي كان جديدًا علىّ،تعانقنا وخرجنا من مدخل البيت؛وسعيت لدى"مبارك" ألا يكون ضامرًا لشيء من "عمر" في هذه الليلة .

الصداقة مرادف حقيقي لمعنى الاحترام،والاحترام الوقود الذي تستمد منه الصداقة وجودها،فرغم ما كان بيننا من اختلافات فى الرؤى،ورغم ما كان يُغلف شكل إحساساتنا من معان الرفض للضعف أو العجز أو الفقر،لكن يظل الثابت الوحيد أن "عمر" لم يفكر مرة،و أنا بالضرورة فى التماس من قريب أو بعيد مع أي معنى من شأنه الطعن فى شخصية"مبارك"أو مجموعة معتقداته،أو أفكاره،أو منظومة سماته الشخصية،وما بها من تفاصيل .

إن صياغة مبدأ إنساني أو أخلاقي مسألة قد تبدو يسيرة جدًا إذا ما قورنت بتحويل هذا المبدأ إلى واقع مُعاش،وتفاصيل يوم مزدحم وممتلئ عن أخره بالمتاعب،حتمًا ستنتهي في وجود صديق حقيقي،فتكثيف معنى المعاناة والصدامية مع الواقع،أو الصداقات لا تكون فى ثنايا حديث عابر،وليس كل ما يقال عن معاناة الأصدقاء وحيًا مُقدسًا؛كي يعلم المتاجرون بقصص

المآسي التي تحدث للبعض؛أو من يقومون بالتفسيرات الخاطئة التي تستمد وجودها من طبيعة نفوسهم المغرقة فى الدنس؛أن رؤيتهم جد عاجزة،لأنهم وفى حقيقة ذواتهم كائنات مشوهة .

كان"عمر"يجاهد فى معركة لا يحبها،المسئولية عن أسرة هو كبيرها،أسرة مريضة بالسكر عن آخرها،وبشكل وراثي يجعل من السكر مرضًا مُهلكًا لا محالة،كان يسكن خلجات نفسه دائمًا شعور عارم بقصر العمر،والزوال والانسحاق،مع ملامح الضعف التي تسيطر عليه ظاهريًا وجوهريًا،كان يستطيع أن يتزوج من أحبها،لكنه أشفق عليها من الفقر،ومن شعور الأرملة الذي ينتظرها اليوم أو غدًا. ومهما كان الواقع مؤلمًا حقًا،لكن تبقى فى دواخل الفنان -الحقيقي - تتحرك روح الرومانسية الشفيفة فى شكل عشق للحياة،وللمتع،وللاندماج مع الطبيعة،والذوبان فيها،والتحليق كطير أو فراشة فى هذا الملكوت العريض.ولقد كان "عمر" فنانًا بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

لم تطب نفسي لتفسيرات صديقي عندما سألته،بل كانت إجابات تناسب طبيعة الرؤية البراجماتية الرهيبة التي تُشكل شخصيته التي أعرفها .

صادفني هاجس غريب استدعته هذه الإجابة،حيث كانت كل رسائل"عمر"التي وصلتني،لا تحمل من قريب أو بعيد أي إشارة لحبه،أو لمشروع الارتباط أو التفكير فى حب بديل.فعندما وصلتني مسوّدة قصته" نابليون"كنت في بعض من ظنوني أعتقد أن الشاب الذي كان مع حبيبته عند الصخور ما هو إلا"مبارك"بنظارته الشمسية،وربما قتل هذا الظن عندي حين علمت من" حمدي عليوه"إنه تزوج،وكان هذا تقريبًا فى سن

متقدم نسبيًا فى منتصف السبعينات،حتى أن حبيبة"عمر" تزوجت قبل ذلك بقليل.فمات عندي هذا الظن نهائيًا .

كنت مؤمنًا بإجابة واحدة لسؤال واحد.ماذا تريد المرأة من الرجل؟وكانت الإجابة الحاضرة دومًا "الثقة"،أكثر الصفات التي تعطى للرجل جمالاً إضافيًا ثقته بنفسه؛يجب أن تعرف المرأة هذه الحقيقة،واثق من إمكانياته،وواثق من حبه،واثق من قدرته على حمايتها،ثم تأتى بعد ذلك سماته الشخصية الأخرى من طيبة وحُسن معاشرة ورحمته بها،وغيرها من صفات .

كان"عمر"على الدوام يستطيع أن يحب،ينفعل بالحب،وكأنه قد تجاوز عواطفه المتجهة لـ (...) بشكل حاسم،ويحيا معاناة شديدة لشعور الفشل فى الحصول على من يحبها.وكان من جملة خلافاتي معه،ترجع لسبب واحد وبسيط،هو اختلاف وجهة نظرنا حول مفهوم الحب .. حيث كان يراه تجسيدًا حيًا وواقعيًا لقدرة كامنة فى الإنسان على إنتاج عواطف تتجه لكائن آخر خارجه،وأن من يعجز عن الحب فى المطلق فهو بالضرورة رجل مفعم بالأنانية،بينما كنت أرى أن الحب فى حد ذاته قرار .

ربما اليُتم المبكر،أو الاغتراب،ربما ولأني منذ الصغر أنتمي للواقع بما يحدث فيه من منعطفات،أو ظروف قد لا تخلو من قسوة هي من شكّلت هذه السمات.كنت مبهورًا بالإسكندرية حين دخلتها طفلاً،كانت مدينة عامرة بكل الثقافات والجنسيات،وحين اكتشفت ذلك الشعور الغريزي بالميل ناحية الجنس الآخر،وأنا واقعيًا لا أتجه إلا للنساء الأجنبيات وفتيات الإرساليات،شاب صغير،رشيق وقوى،ولا تبدو عليه علامات سنه الصغير وجرئ،فلا توجد ثمّة مشكلة أبدًا.وكان عندي سوء ظن غريب فى

المصريات،جاهلات في معظمهن،بدينات،مجرد آلات لإنجاب الأطفال .كان أسلوبي دائمًا يتحرك فى اتجاهات محددة مستندة على معنى الجرأة عمومًا

- ممكن نرقص؟.

- وهو كذلك.

- أنتِ رائعة.

- أشكرك.

- ممكن نستكمل السهرة فى مكان آخر.

ليكن ( هنا تبدأ مجموعة مهاراتي المتواضعة في صياغة علاقة طويلة العمر نسبيًا ).

أما إذا قالت:( لا).

- إذن.. سلام.

كان"عمر" يرفض هذه الأسلوب،بل يصفه نوعًا من خسة الطبع،وبشكل مضحك أحيانًا انفتاحًا مأساويًا على الغرب،لذا ظل مراهقًا للنهاية،يمتلك فقط ماكينة تنتج الحب،دون محاولة ترجمته إلى واقع،وكنت مؤمنًا أن الحب كالثورة،ربما يكون قيامها أسهل بكثير من ترجمة أهدافها إلى واقع،هو يعلم بالضرورة أن (...) تحبه،وهو إلى أبعد حد يحبها،لكن على الأرجح وليس لأنه مريض أصلاً، أو غير قادر ماليًا لم يفكر بالارتباط منها.هو بلا شك كان مؤمنًا أن الزواج مقبرة للحب،وهو لا يريد الحياة بلا حب .

حدثني زميل ذاتي يوم،وكان يعرف كوني غريبًا إنه إن أطلعني على سر،فسيكون فى أمان. قال لي بعد بعض المقدمات: أن له شقيقًا على وشك الارتباط بفتاة،ومن ثم سيتزوجها،لكن شقيقه هذا كان منكبًا على

العلم والتحصيل والعمل بشكل يقلقه الآن،حيث أن هذا الشاب لم يمارس الجنس قط،وكانت هذه معلومة مؤكدة لديه.وفيما يفكر الأخ ؟
يريد الاتفاق مع فتاة ليل تدبر الظروف الخاصة،و تقنعه بوسائلها بأن يمارس الجنس معها،بشرط أن تعرب له بعد انتهاء العلاقة إنها لم تجرب هذه المتعة والنشوة من قبل،وتمتدح فحولته،بشكل قد يبدو مبالغًا فيه .
فى حقيقة الأمر اندهشت فعلاً من الطريقة التي يفكر بها هذا الرجل،وقلت بصراحة وحسم وبأسلوب لا يخلو من نكتة :
هنا من الصعب أن نجد فتاة عذراء، فلا أقل من رجل عذراء. ضحك الرجل بشدة وقال :ليس هذا هدفي،فقط أريد بث الثقة فى نفسه أنه قادر كرجل أن يشبع امرأة متى أراد ذلك.
كنت أحتاط لنفسي وأمقت الحديث عن تلك التفاصيل الخاصة جدًا التي تتم مع من عرفتهن من نساء،مع أصدقائي عمومًا،بينما كان "مبارك"لا يخجل من الحديث عن تلك التفاصيل،وربما أدق التفاصيل،وكان"عمر"يستمع مشدوهًا إلى هذه الكلمات التفصيلية التي يبديها،و يستقبل هذه الحكايات وكأنها مجلوبة من كتاب أساطير،لم يقع تحت يده من قبل .
هل كان"عمر"يخشى من الجنس؟هل كان يقيس تلك المسافة الشاسعة نسبيًا بين قوته الجسدية وقوة "مبارك" ليبرر من خلالها لنفسه إنه لن يحقق بعضًا مما يسمعه منه ؟
لم يكن "عمر" جزءًا من مغامراتنا العاطفية،حتى تلك الأماكن التي كان الجنس فيها متوفرًا،وبدون مجهود،لم يكن شريكًا،وعلى الأرجح أن ثقته في قدراته قياسًا على ما كان يراه من خلال مقارنته لنفسه بنا؛جعلت منه لا

يفكر سوى فى الحب فقط ؛كحيلة رومانسية للهروب من التفكير فى هذه المعضلة .

كنت أنظر للفقر على إنه العدو المباشر لقتل الموهبة،وكنت مؤمنًا أن المعاناة فى المطلق لا تخلق الفنان،وخصوصًا المعاناة المالية والتي ترتكز ارتكازًا شديدًا على مقولة الفقر فى قمة صوره .لأنه كتب رغم كل شيء،بل وسعى لأن ينشر ما يكتبه ليقول كلمته للناس،وإن كان ضروريًا أن تكون هناك ثمة مأساة،أو معاناة،فهي وبلا شك معاناة التواجد فى زمن يرفضك.كان منشغلاً بالحلم الناصري،ومعطيات المرحلة أكبر من ممارسة العواطف،والميل الغريزي للأنثى والحب فى المطلق،وهو فى حال تأسيس لمشروعه الأدبي والفكري .

ذهبت لحبيبته كي أجيب سؤالاً لن يجيبه سواها.وجدتها سيدة فى نهايات العقد السادس،صارت أما لأولاد،ومازالت تحمل من ملامحها الطفولية الكثير،رشيقة ومهندمة بشكل مقبول،وإن كانت متاعب الزمن والسنين قد بدت فى ملامحها فى أكثر من موضع .

كان صعبًا أن أسعى للقاؤها،ولكن يظل صعبًا أن أتجاوز التماس "عمر" حين طلب متى فيما يشبه الوصية أن أسأل عنها وأتابع أخبارها لو كنت على أرض مصر بعد طول اغتراب .

كنت أظن أن آفة النسيان قد أصابتها حين أرسلت لها صديقًا مشتركًا،ليحدثها عن رجل يريد زيارتها،وكل ما يشفع له لكي تتم هذه الزيارة أنه صديق قديم وقريب من المرحوم" عمر بشير"والغريب أنها قالت لمجرد ذكر اسمى و اسم"عمر":نعم أعرفه وأتذكره.عاد صديقنا،ووصف لي ما شاهده،وإجابتها الحاسمة كونها تتذكر ذلك الصديق وتعرفه، وبعد عصر

الأحد تنتظرك،استحضرت هنا صورتها فسقطت منّى دمعة على هذا الماضي الذي رحل... حضر اللقاء ابنها وبنتها،وعلمت أن هناك بنتًا أخرى متزوجة فى واحدة من ضواحي الإسكندرية .

دخلت شقتها وجلست على أقرب كرسي من الصالة،وبقيت منفردًا معهم، وربما كان منظري كفيلاً بأن تطلب منهما فى أمان كامل بعد أن قامت بالتعارف فيما بيني وبين أولادها حيث قالت:الأستاذ "يوسف" أخي و من جيرة" كرموز" الطيبة،وصديق قديم لأسرتنا.وطلبت منهما أن يذهبا لعمل واجب الضيافة .

كنت أحمل العديد من الأسئلة التي تبخرت كلها،فدار الحوار عن الحياة وما بها من تفاصيل،وكانت للأمانة غير متكلفة،أو خائفة أو مرتابة،نصف ساعة ثم باغتها.لماذا لم تتزوجي من"عمر"؟قالت:ألم تسأله ؟

قلت:لم تسمح الفرصة لأن أسأله.

قالت:كان جديرًا بك أن تسأله لأني لا أعرف السبب .

قلت:كيف استقبلتِ خبر وفاته ؟

قالت:حزنت عليه وعلى شبابه وخصوصًا بالطريقة التي سمعتها .

قلت:متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها "عمر" ؟

قالت:يوم فرحى،كان صديقًا لزوجي،وعلمت بعدها بمدة قليلة أنه من رشحني له .

قلت:"عمر"؟!!

قالت:نعم.

قلت:هل كان ترشيحًا جيدًا ؟

قالت:لم أغضب منه ساعة.
تحدثنا كثيرًا،ثم نزلت،وأنا شبه غائب عن الوعي؛ربما فهمت ولو قليلاً لماذا لم يكن"عمر"يحدثني عنها في رسائله،لكن اكتشفت فى هذه الزيارة الخاطفة أنه حين وثق من شيء للمرة الأولى فى عمره .. أهداها زوجها .
كان"عمر"إذا صادف بعض الكلمات التي تؤلمه عمومًا وخصوصًا منّى،يرفع رأسه ناظرًا إلى السقف؛ويبدأ فى المرور على"تفاحة آدم" فى رقبته بشكل عصبي،في إشارة ربما يعلن من خلالها أن الكلمات كادت أن تخنقه - ربما - لكنه بعد لحظة يعود للحوار والجدل بكلمة واحدة،وبصوت حاد نوعًا: ماذا تريد أن تقول ؟من ثم نبدأ فى منعطف جديد من حوار ممتد .
لكن ما قلته له ذات يوم كون صداقتنا ستنتهي بكارثة،فلقد كنت أعني ذلك تمامًا، فأنا أسير على الأرض،وهو يسبح في الهواء.
حدثت مشاجرة مع صولات معتقل الفيوم،كادوا أن يفتكوا به لولا تدخلي واشتباكي معهم،قمت بتهريبه من تحت أيديهم،في ردَّة فعل لم يكن"عمر"نفسه يتخيّل أن تحدث.
كان يسير كا ناظر عزبة،بجسمه النحيل،ونظراته الشاردة فى فناء المعتقل،يركل الحجارة بشكل يائس،أمسك ببعضها وكأنه يقوم بالتصويب على هدف غير معلوم،كنت أراقبه وأنا فى قمة البؤس لمنظره،وردود أفعاله،ربما لم أكن حزينًا مهمومًا بسبب تواجدي،قدر ما كنت حزينًا له،لفراقه أسرته التي تراه رغم كل شيء رمزًا لها وكبيرها .
ألقى واحدة من أحجاره صوب واحد من الصولات،اشتبك معه،كان من الممكن أن تنتهى المسألة،لولا تجمع العديد من المناصرين للصول، ولا

أدرى كيف ركضت هذه المسافة إلى الآن،لكن الثابت أنني كنت سريعًا جدًا،أضرب ركلات عشوائية لتخليصه،أضرب بيدي في كل اتجاه يقابلني،وفى وسط هذه الجموع صرخت:اهرب يا "عمر".

مكثت أمارس العراك الشرس بكل ما أوتيت من قوة ؛كان يخامرني إحساس غريب ؛بأنني أقاتل نظام كامل،أقاتل من حرمني فرصتي؛أقاتل من كسر قلبي بـ ٥ يونيو،أقاتل أعداء لم أكن قادرًا من هول المشهد أن أحددهم،للدرجة التي لم ألمح فيها نصل "السونكي"وهو يصيبني فى أعلى عنقي وتحت شحمة أذني .

علمت فيما بعد أنهم جلدوه،وأن الجلّاد الذي نفذ عليه الأمر جلده جلدتين فقط،وكانت تلك المرة الأولى على حد تعبيره،يرى جلدًا بسياط الرحمة،وأنها المرة الأولى التي يخدمه فيها جسده النحيل .تم السيطرة على ثورتي،وأودعوني حبسًا انفراديًا كأسبوع للتأديب؛كنت فيه مكتئبًا بشكل لم أجربه عمري.في هذه الأجواء القاسية أدركت قيمة النهار والنور والشمس،أدركت قيمة نعمة البصر نفسها،أدركت أن حياة الثوار الذين يبيعونها من أجل الحرية ثمنًا رخيصًا من أجل معناها.أدركت قيمة الريف العريض الذي كان بمثابة بساط سرمدي الاتساع .

فى اللحظة الأولى التي خرجت فيها من محبسي صفعني النور،تحركت رأسي بعصبية شديدة،وكأن النهار كرات من الثلج المجروش الذي يُصب فوق رأس نائم مستغرق فى النوم .قادوني إلى الزنزانة العمومية،وكنت سعيدًا رغم هذه الظروف التي لا تغرى بالسعادة،يكفيني وقتها أن أرى"عمر"رفيق الحياة والقيد.دفعوني دفعًا إلى الداخل،وكان يجلس فى ركن،لا أدرى إلى الآن

كيف قام لعناقي بهذه السرعة،رغم ما كان باديًا عليه من تعب شامل .كان عناقه لي في هذه اللحظة مختلفًا كل الاختلاف عن أي عناق آخر سبق وأن تم بيننا . وقال كلمته التي ما كنت أتصوّر أبدا أن يقولها بصوته المرتعش؛كلمة حُفرت في ذاكرتي: "يوسف" طعنني بمحبته .

ليلة بكت فيها الزنزانة بمن فيها من بشر وجدران صماء،قام مندفعًا نحوى وهو يصرخ:ابنى .كان عناقًا طويلاً حزينًا مؤلمًا،ربما من قوته كان يُخيَّل لي أنى أحمله بالشكل الذي لا تلمس قدماه الأرض،ثم غرقنا في دموعنا . نظرت إليه وفى عينيه لأجد المحبة فى قمة بهائها،وقلت مندهشًا:ابنك ؟

قال وهو يلملم حروف كلماته الضعيفة : فى ظروف كالتي نحن فيها،لا يوجد من يثأر لكرامتك إلا ابنًا من صلبك.هما سنتان بيني وبينك،لكن المعاني لا تُحسب بالسنين .

بعد تجربة الاعتقال وخروجنا منها،كانت معظم العناوين التي تزخر بها مفكرتي،عناوين هروبية،تتخذ من الرحيل المعطيات الوحيدة الباقية .. كان يعرف بعميق خبرته بي،أنني راحل لا محالة، وخصوصًا بعد وفاة رتيبة والذي جاء ليضع النقطة الأخيرة فى منظومة حياتي كلها فى مصر،واقتلع جذوري عن آخرها إلا صداقته وصداقة "مبارك"وعاطفة ملتهبة، ولكنها غير محددة مع "لورا"،ويسيطر علىّ في هذه الفترة ذلك المثل الفرنسي الغريب فى معناه بشكل قد يبدو مرضيًا{ ..القطط فى الليل كلها رمادي} فلا هدف محدد،ولا أدنى قدرة منّى على تحديد أي بعد من الأبعاد سوف أبدأ منه رحلتي القادمة لماذا لم يفكر»عمر»بشكل إيجابي في مسألة رحيلي ؟

سألت هذا السؤال لـ «مبارك»عندما فسر حزن عمر لسفري وقام بتأويله

على أنه نوع من التخلي والخيانة لمعنى الصداقة الكبير الذي كان يربط بيننا وسألت مبارك كيف نظرت أنت للمسألة ؟

قال: لم يكن سهلاً أن أضع نفسي في موضع»عمر» من نفسك، لذلك كنت متعاطفًا جدًا مع رأيه،بأنك كنت تتحرك فى فكرة السفر مدفوعًا برد فعل مبالغ فيه،وإنك لم تكن بحاجة للرحيل كمحاولة لرسم عالم جديد يليق بك .قلت: ونختصر الأيام كلها فى بلياردو وشرب وجنس،أم ننساق وراء تجربة القطاع العام المشوّه،ونقوم صباحًا ونعود عصرًا وننام ونطفئ الأنوار، كي لا يؤثر ذلك على راتب الشهر الضعيف،والمقدس،ونغسل أيدينا من أثر" الجاز"ونحتاط لأنفسنا إذا ضاع»الكوبون»؟؟؟

قال:لا تجافى الحقيقة،كنت تستطيع بيع ولو جزء من أرضك لتعيش بشكل يرضيك.أو لتتاجر وتكسب دون مغبة القطاع العام ومشاكله،أنت تحب البلد ولكنك غير منتم.منذ شبابك المبكر وأنت مفتون بكل ما هو غربي،طريقة أكلهم،أسلوب تعاملهم مع الخمر؛حتى الجنس نفسه،لم تكن تمارسه إلا معهم،أعترف أنك كنت طيبًا وإنسانًا،ولكنك عنيد،ولا تترك حقك مهما طال الزمن،كنت تريد أن تمارس نوعًا من الانتقام،للدرجة التي تخليت فيها عن جواز سفرك حينما سألتك .. هل مازلت محتفظًا بالجنسية المصرية؟فقلت لا .لا أطعن فيك كمحب لهذه الأرض،ولكنك فى اللاشعور ترفضها،تمقتها؛ظروفها تصيبك بالغضب،ولا تصبر عليها.

قلت:أنت صبرت ؟

قال:ربما لم أصبر،ولكن تعايشت مع الوضع.

كان حديثه يليق برجل ناضج،وضوح وصراحة وصدق،وإن كان موجعًا،لم

أجد فائدة من الدخول معه فى جدليات،هو في معظمها صاحب الحجة الأوفر حظًا،والتي تأخذ مشروعية وجودها من ظروف فى كل الأحوال واقعية وحقيقية .لكنهم لا يعرفون .. هما أم أنا ؟؟!!

كان الوطن عرضًا زائلاً،ولم نكن نتخيل أنا وجيلي أن العدالة ليست فتاة معصوبة العينين دائمًا. بل ترى قليلاً؛وكثيرًا ما يُكف بصرها،وتحتاط لنا إذا حرصنا مرة أن نعبر بها الطريق تفاديًا للزحام الذي قد يعوق خطواتها .كنت كمن يسأل الناس زورقًا،يخترق العباب حتى يصل لتلك الشمس التي صبغوها بالدم المشوب بالسواد،قبل أن تسقط غاربة فى مياه البحر،لكن هيهات أن أقدر،والسقوط أسرع من أنفاسي اللاهثة،وحمى رفضي لتلك النهاية .كنت كمن يتوسد الفراغ،ويمد جسده الفارع فوق بساط اللاشيء،وعيناه مثبتة على ركن من السماء،مازال ينظر للعالم ببعض الرحمة وقليل من الغضب. سنوات طويلة لم أمارس تلك اللحظات التي تتجه ببصري لهذا الكون العريض،ولم أكن أتعاطى أفيون التأمل كثيرًا فى ذلك الملكوت،لكنني على الدوام أحمل رغبةً من روح فتاةٍ كبلتها التقاليد ومنعتها من البوح لرجل ظنت يومًا إنه يحبها،يُدعى الوطن .

كنت دائمًا ما أرى شبحًا من حقيبة،أنا الذي جُبل منذ القديم أن يمتطى صهوة السفر، أحمل بعض الأحلام،وأترك بعضها،أعانق الجحود وأقبّل التخلي،وأترك بعضًا من دموعي فى أروقة المطارات،ألوّح بيدي لأطياف من بشر لا أعرفها،ولا تعرفني .أتجرع اليوم من القنينة مباشرةً،فلم يكن هناك ثمة وقت لِلثلج،أو قليلٍ من الصودا؛كنت ثملاً ،ولكن الوطن كان أكثر ثمالة.كنت أحمل الكثير من الأفكار الطاهرة،والوطن بدوره لم يكن عذريًا طاهرًا؛ قبور

من الصمت، مدفونٌ فيها مئات القتلى المسحوقين،وموجز الأنباء يخرج على كل لحظة،كطعنات خنجرٍ مسمومٍ . ومنذ القديم،أمتهن الصمت،لا عن حبٍ للصمت،فالكلام كماء البحر لن يروى الحقول. أتعلل ببعض الأسباب كي أنسى،أو أتناسى ،ولكني عادة أحمل ذاكرة الشمس التي لا تنسى مطلقًا أن آخر مرة أشرقت فيها على الأرض،كانت قبل ما يقرب من اثنتي عشر ساعة قبل غروبها .

ابتلعتني دوامات الحاضر،وشغلني المستقبل،وتفاصيل تتطلب الجهد والعناء والمشقة،تركت الماضي وحيدًا عند رصيف بعيد فى ميناء الإسكندرية،ماضٍ تنمو شجرته من فيض دموع سيدة يونانية،كل جريمتها أنها أحبتني،وكل ذنبي أنني كنت مشغولاً عنها بما أحمله واقعيًا على كتفي من كوارث وجمود وآمال مُحطمة. تمنيت أن أكون شيئًا مختلفًا،كائنًا آخر ينتمي لعصر جديد،يحمل من سمات مجتمع لم يعد فيه من يحمل لقب غريب.كان معتقدي شمعة تحترق من أجل معتقد جديد أحملهُ؛قدرٌ لم يكن هناك بد من الحيلولة دون وقوعه،حتى إيماني قبل وبعد الرحيل كان دائمًا على المحك،أنا الذي ما استطعت لحظة أن أنسى طوعًا أو كرهًا قيمة السماء كسقف يجب الاحتياط الدائم لوجوده كمظلة تستر قلبي الذي ينبض ببعض من إيمان،وتسليم بوجود العظيم الذي يتولى هذا الكون بعنايته .

سنوات،ونتيجة الحائط تملأ سماء أيامي بالأوراق المتناثرة التي أصبحت لا أعلم عددها يقينًا،بينما يُصدمني تأثيرها على شكلي ونضارتي،وصحتي التي إما تأثرت بالزمن، أو تأثرت بما لحق بي من كوارث. جلست وحيدًا،بكيت بما فيه الكفاية،حتى يأست من البكاء رغم ما فيه من معنى الراحة

نظرت إلى حسن طالعي بشيء من التوجس،فالحياة برغم ما فيها من معاني السعادة،باتت تقلقني حقًا،سألت نفسي مرارًا .. ماذا ينتظرك أيها الطائر المحظوظ ؟هل ستلتهمك أفعى المرض فوق شجرة البؤس؟أم ستسقط في نهر من جحود،لم تكن لترى فيه التمساح الرابض في أعماقه ؟

نظرت إلى ابني،فبكيت شاكرًا النعمة،نظرت لشريكة رحلتي،فحمدت الله أنها كانت مخبوءة في الغيب من أجلي،نظرت لحياتي كلها فوجدت أن سجودي لله حتى قيام الساعة لن يعدل نفحةً منها .

كان كل شيء تمسَّه يدي يستحيل إلى إنجاز جدير بالتقدير،ما كنت لأتهاون في حق نفسي.سنوات وسنوات،كان الفشل الوحيد الذي كان لابد أن أعترف به،أن جذوري لا يمكن المساس بها،أنا الذي حاول دومًا أن يقتلعها ففشل،حاولت بناء صرحٍ من الكراهية لهذه الأرض وعندما أدير ظهري لهذا البناء؛ينهار كليًا .لكنهم لا يعلمون .. أم أنا بالضرورة لم أكن أعلم ؟؟ !!!

إن القاضي لا يريد أن يستصدر حكمًا،فقط أريد لأن أفهم كيف مات عمر بشير يا رجل؟ فحين أرسلت له مع « حمدي» بعض الأدوية الخاصة بمرض السكر والمُقويات،وبعض المال،أنتظر منه رسالة أو أي طلب يريده قبل أن يعود لي،فلم يتصل به حتى قبل موعد السفر بيومين.. التقي به في ناحية شارع راغب باشا وأعطاه ورقة علبة سجائر،مطوية كأنها حجاب.

فاندهش حمدي وسأله . رسالة لـ يوسف ؟ فقال : نعم

ألم يكن لديك ورقة أفضل منها ؟

فرد حسبما قال :لا طاقة لي لأن أعيد كتابتها .وكان بها أربعة أسطر،لم يكن حمدي يعلم ما فيها حتى قرأتها أمامه.. يوسف.. أرأيت مثل هذا السخف

من قبل؟المتنبي من قبل أن يُخلق»عمر»بألف عام يسخر منّى.. بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن،ولا نديم ولا كأس ولا سكن.

فرغت من قراءتها ثم قلت:يقين «عمر» إلى أي اتجاه سيأخذه ؟ مرَّت الأيام كعادتها،حزن شديد وألم لفقده،وانسياق عشوائي وراء دوامات الحياة المعتادة فى سنوات الغربة.عام من يوم أن علمت بوفاته وربما أكثر.كنت أتابع "حمدي عليوه " فعلمت أنه فى مصر؛وسوف يعود فى غضون أسبوع .هاتفته،ودعوته أن يقضى معي عطلة نهاية الأسبوع.. لم يكن «حمدي» يستطيع تكتّم خبر بهذه الغرابة والبشاعة،حين قال بصوته المتهدج:تخيلت كيف مات «عمر» ؟ قلت:من تداعيات المرض بالتأكيد .

قال:لا لم يحدث»عمر»مات منتحرًا...أحرق نفسه وأوراقه معه ..

أعترف أن ما قاله كان بمثابة موتًا جديدًا للرجل،فبالفعل لم أستطع النطق لدقائق،بكيت من تلك النهاية التي وضعها لأبشع قصة قصيرة قرأتها فى حياتي "مبارك"كيف حدث ذلك؟وبهذه الكيفية المؤلمة؟

الأعوام الثلاثة الأخيرة قبل وفاته،كنت كمن يتسوّل لقاءه،لم يعد يظهر فى الأماكن المعتادة.اختلفت الظروف،لم يعد يمارس حياته أو حتى الكتابة،وكنت أتابع أخبارك من خلاله،يثنى على عدم نسيانك له،وتواصلك الرائع مع مستجدات مرضه وتوابعها.كان يعانى حالة اكتئابية رهيبة، بدا زاهدًا في النظر إلى وجهي حين أتحدث إليه،حتى عندما كنّا نقوم باستدعاء سيرتك،لم يكن يُعلّق أي تعليق،إيماءة برأسه وابتسامة باهتة.. اتصل بي شقيقه وأخبرني بالحادث.وكنت وقتها لم أره قبلها ما يقرب من شهر .

كان سؤالاً لا يخلو من سذاجة؛ فكل الطرق تؤدى إلى الانتحار لكن مع

كل ذلك سألت.ولماذا الحرق ؟
لم أجد لديه إجابة،ولم أكن جاهزًا لتحليل موقف ذاك الغائب الحاضر،كل ما كنت مؤمنًا به أن صديقي كان يريد الثورة على القدر،ويمنح لنفسه وسط هذه الظروف الصعبة القدرة على الاختيار لموقف ما بملء إرادته .لم أترك الموقف يمر دون محاولة الفهم،كانت" ليه"هي أهم ما يتردد فى نفسي بشكل مؤلم طوال الوقت .لا....ليس «عمر» الذي أعرفه من يطيق رؤية الدم الغزير،إن حاول تمزيق شرايين يده،صراخ وآلام المعدة ربما ستخلق ظروفًا قد تحول دون إتمامه لقراره بالانتحار،فربما أنقذوه إذا ما تجرع السم وهو عاقد العزم على الموت .
لا... إنه لم يحرق نفسه كرغبة في التخلص من حياته،بل يريد التخلص من تراثه،كتبه وأوراقه .ستلتهمه النيران وتكون مسألة إنقاذه ضربًا من العبث،حتى لو أنقذوه،سيموت بعدها متأثرًا بالحريق."عمر" كان منطقيًا،لم يكن قادرًا على صياغة نهاية تتسم بالمفارقة التي كان بارعًا فيها،فوضع النهاية المنطقية التي تليق بجحيم أيامه،ويموت متأثرًا بالنار التي استطاعت منذ زمن بعيد أن تلتهم شبابه كله،فما كانت نار النهاية إلا النهاية الطبيعية لجحيم أيامه كلها.. أو لعله كان يقصد نهاية تحقق له بعضًا من الخلود لسيرته،رجل حرق نفسه فى زمن ما،في مكان ما .
كنت أسبح في دوامة من الهذيان،أتألم بشدة لتلك النهاية عند الحديث عن الإيمان واليقين الذي كان جديرًا به أن يحياه،وقت أن انهارت كل الأفكار والمرجعيات أو تكاد .
هل يكفيه أن يكون ابنًا لأبوين مسلمين؟هل يكفيه أن يدفن فى مقابر

المسلمين؟هل يكفيه أنه استمع يومًا للقرآن.حتى وإن كان لمتابعة بلاغته؟هل يكفيه أنه كان معجبًا بشخصية "محمد" صلى الله عليه وسلم؟هل يكفيه أنه توضأ خصيصًا لكي يقرأ آي القرآن على مسمع «رتيبة»بصوته الشجي؟هل يكفيه اختلاسه النظر إلى السماء فى معتقل الفيوم؟ تُرى هل كان يشكى الهوان لخالقه؟ليتني سمعته كي يطمئن قلبي .ربما لن يكفيه،لكن حسبي وحسبه أن جبار السماوات والأرض قد كتب على نفسه إنه الغفور الرحيم والرءوف بعباده .

لا يا صديقي.. لربما قد آن الأوان لتطمئن،فربما حضرتك نيّة الندم على هذه النهاية،قبل أن تلتهمك هذه النيران المتعجلة لتُجهز عليك ولقيت ربك مؤمنًا .

## هنا ترقد الصداقة

كلما جئت إلى هنا،وخصوصًا يوم مولدك، وأجلس فوق مقعدي الاستثنائي الذي يليق بما آلت له أمور حياتي،لا أعرف يقينًا.هل أبكيك أم أبكي شبابي الذي ضاع ولن يعود؟ ترقد هنا على أمل أن نلتقي، تذكر يا "عمر" ؟ لقد كنّا نذاكر دروسنا على ضفاف هذه المقابر،لم نرِ قط واحدًا من الموتى يزعجنا،هدوءٌ عزَّ عليّ أن ألقاه إلا هنا،فالأحياء خارج هذه الأسوار لا يُطاقون؛ثرثرة وجنون،هوس وأكاذيب وضلال.كنّا نضع لفافات التبغ الرخيص بجوار الشواهد،وتصطف الكتب مستندة على الصبار الأخضر،اليابس من أطرافه المتكسرة كحياتي،وحين يأتي الناس في العيد،ويهتفون فينا لنذهب لنأخذ الرحمة التي يوزعونها على زوار القبور،نقف نأكل كالمجانين من التمر والكعك،نتصارع فيما بيننا،من سيأخذ القطع التي كانت النار شديدة عليها حين تمَّ نضجها،ونتجادل فيما بيننا.هل الموتى حقا يسمعوننا ؟

آه لو تمسَّكت برأيك،وأصررت أنهم لا يسمعوننا،وربي ما جئت إلى هنا كي أتحدث إليك،وأتكّبد عناء رأيك الصادم في طموحاتي،بعد أن أنفض الناس من حولي،وصارت وحدتي هواء أتنفسه،أنت تسمعني حتما .يُلح علي فكري السؤال؛يُسدد خنجر الحيرة في كل أعضائي حين أصل إلى قبرك،أهذي كالمجنون وأصرخ فيك،تُراك حين قررت الرحيل بملء إرادتك،كنت تريد الفرار؟

لا يسعني بعد كل هذه التفاصيل،أن أنعت موتك قرارًا شجاعًا،تثبت به إنك قادر على تفجير مفاجأة مدوية،يتحدث عنها الناس،كنت تريد في

نفسك أن تنتقم منّي على ذنبٍ لا حيلة لي فيه.يقيني إنك تحبني،ولكنك كعادتك دائمًا سيء الظن في توجهاتي،ولا تبررها مبررًا يرضيك.نعم.. فحين قررت هذا الأمر - حتمًا - كنت تريد الانتقام منّي،قررت أن أحيا بلا أروع صديق قابلته في حياتي،لكم كنت أحتاجك هنا الآن،لترى بأم عينيك صديقك الأغلى إلى أي جهة انتهي به الطواف.

الطفل الريفيّ اليتيم الذي راوغ الجميع ووضع الكرة في مرمى خصومنا انتقامًا من تجاهلكم له فقد ساقيه يا "عمر"لم يعد فارع الطول،تحولت النظرات المُعجبة به إلى شفقة مدفوعة الأجرِ، صاروا يحملونه كي ينجز أتفه الأشياء،ينام كالكتب القديمة فوق رفوف الانتظار،ليت شعري! لو كنت هنا تعاين هذه المشاهد في جواري؛لمُتَّ مرتين. مات (عمر) يا صاحبي حمل اسمك،وقصر عمرك،دفع بروحه الذكية أمواج الحقد عن أبيه..مات،ومات معه حلمي،وتعلمت بعده أن أقتل الوقت في ليل وحدتي بالبكاء،احتسبته عند الله،ولكنّي أب،ليتك تعلم ماذا تعني الأبوة يا رجل؟

مات الابن الوحيد الذي كان امتدادًا طبيعيًا لي،كبرياء أمي،وطموحي الذي تعرفه،ووفائي لجذوري،أنت وهو من كانا يذكراني بمصر،ويلح عليّ أن نزورها،ونرى الإسكندرية التي أرهقت عقله الصغير بالحديث عنها،لم يزرها، فكرت أن أحمل رفاته إليها،ولكنّي عجزت أن أخلق أجواء جنائزية جديدة تحطم قلبي.

تنتابني رغبة مجنونة أن أحدثك عن معشوقة عمرنا الغالية،ابنة البحر؛فتاة أحلامنا؛ستتألم حتمًا إن قلت لك:اغتالوا الإسكندرية في غيابي،استباحوا حسنها بعد رحيلنا من هنا؛البحر يذكرني بأبي العلاء؛ صار رهين

المحبسين،حاصروه بالأسمنت،وقيدوا أمواجه بالأحجار،لم يعد يغني يا "عمر" ولم يعد يطيق أن يسمعني حين أرتل عليه آيات الشباب في الماضي البعيد،لم يعد يفرق بين وجوه من عشقهُ،ووجوه قاتليه،لكنني حين أضيق بالدنيا أذهب إليه،في البداية لا يكترث،يتدلل في غضب،كطفل انتزعوا لعبته.وحين يشم رائحة أوجاعي،وعبق محبتي،يخجل منّي،ويندفع إلى أحضاني،ويرهف السمع كروحي التي تنتظر قرار خروجها من سجن الجسد. وهنا أحكي له كل الحكايات القديمة،حتى تنكسر شوكة غضبه في راحتي وينام .

هناك،يمضي يومي،ما بين الغبار الذي تساقط كحبات مسبحة من كف الخريف،وبعض نسمات البرودة التي تأتي مع سيف حارس الشرف الذي يتقدم موكب الشتاء،أغلق معطفي الثقيل عند حافة البحر،لم أكن لأشعر بالبرد من جهة أطرافي التي تركتها في أمانات فندقٍ،نسيت عنوانه من طول السفر وغياب التركيز،الموج صهيل الخيول المُغيرة،ورزاز المطر رايات الجيوش التي انتصرت على كل أحلامي،في معاركٍ مفعمةٍ بالخسارة،معارك ظننت إنني قد انتصرت فيها،ولكن هيهات.

وحين تنكسر المرايا،أعود أدراجي؛يبدو لي العمر كورق اللعب،فلكم قامرت،ولكم ربحت من أرباح مشوبة بالخسارة،وجهي وما يعتريه من ملامح يكشف عنها،أرحل بزاد الذكرى،وكلما أشعر باقتراب الأجل،أفتقد البحر مجددًا،أبتهل منهم أن يتركوني وحدي،وما الغريب بعد رحيل كل الغوالي في أن أكون وحيدًا؟؟أبث للبحر أوجاعي التي باتت تؤلم الموج،وتقشعر لها الصخور،أسبح في التفاصيل،أرى جريدة العمر باهتة العناوين،والمقال

الافتتاحي مؤلم جدًا،حكمة العدد تسخر منّي،الأبواب الرئيسية شديدة الملل،صفحات الوفيات تحفل بكل من أحبهم،ألقيها جانبًا فوق مائدة الإحباط،وأفكر في غدٍ ربما سيخرج من سجنه بعد لحظات.

في بعض الوقت،لا.. بل كل الوقت،تتسلل زفراتي من البركان الكامن في صدري،أتعجب،أنظر إلى جليد الجدران،فأراه شامخًا،رغم ما يملأ الأجواء من لهيب...النار كما هي،والجدران لا أمل لي في أن تذوب.ضجيجٌ أخرس،وزحامٌ منزوع المعنى،مكة يومي ترفض آياتي،فرسان الرايات السودِ،طواويس الكفر المنزوع الرحمة أحلوا دمي.. يصطفون في فناء حلمي،بسيوفٍ تترصد قلبي،وأنا منذ جئت لهنا،أرسلتُ وعودًا للموت ينتظر قدومي في يثرب.

لم أكترث كثيرًا بما يحدث رغم بشاعته،لم أسأل أبدًا ماذا حدث في أيكة الظل عندما هاجرت الطيور نحو طريق اللاعودة؟لكنهم تخيلوني سفيهًا،هاجسًا مشئومًا،عدوًا مبينًا،وأنا البسيط البريء،أنا البياض،والطفولة،أنا التوحد والآلام،ومُضغة ليلٍ تلوكها أنياب كابوسٍ لا يرحم،لم أسأل يومًا ماذا أصاب العشيرة في الغياب؟ لكنهم بكل غباء سألوني .. من أنت ؟ وماذا تريد؟

حقًا.. هل تعلم يا صاحبي من أنا؟؟

قلتُ لهم:مخدوع،للتو أفاق من الهوس،قضبان سجنه لولا عجزه؛لكانت أروع مكتسبات عمره،التعاطف والإشفاق،مفردات صارت تقتله،رسائل الأصدقاء...رسائل لا تنقصها الرحمة والحياء،لكن من أنا ؟؟

آه لو كانوا هناك عند محطات السفر،كنت أنا هذا الطفل الذي اغتالوا الدموع في مقلتيه،دفعوه دفعًا للقطار،لم يسألوه إن كان فرحًا أم حزينًا.

خالي تمهل ! هاهنا أوصيك خيرًا بالطفولة التي تركتها في فناء البيت،وعند ساقية الأغاني،وعلّقت بعضًا منها في شجرة سدر عتيقة عند كُتاب قريتي،خالي تمهل ! لا تضغط كفي في غضب،لا تعبث بكتفي وشعري،اترك لي بصمات أمي باقية إلى الأبد فوق جسدي،يكفي حمق.

من أنا؟ تعاطيت التمرد بطول عمري،نزعت قلبي من ضلوعي وسحقته بكل حذائي،عبثًا حاولت أن أعيش بلا قلب،كانت تتساقط رحمة ربي كالمطر وأنا - يا لغبائي!! - أركض لأختبئ في مظلة صنعتها من جهلي ونزقي، .تحاملت على نفسي،وجمعت بكل الصبر شتات القلب،وحين استقر في صدري،احترق متّي،لكن بالحب اسأل ذاك العدل.أما آن للمسافر أن يجد وطنا يرتاح فيه ؟ يا وقت!! مالك قد صرت كألم الأسنانِ،تلتهم قلبي حزنًا حتى العصب؟أيامي الآن بلا أنياب، وقواطع أحلامي تعاني الكثير من الهشاشة،جعلت كلمات النور المنبعث من ضميري تخرج مبتورة. ستون عامًا ويزيد،والماضي يزاحم أنفاسي،أختبئ كما اللص بدموعي خلف الأستار،أراود حزني؛أنسى قليلاً واندفع،أتحرك كالفراشات فوق خشبة مسرح لا يكترث بأوجاعي،وحين ينتهي العرض،أقوم بتحية الحضور،أنحني للتصفيق الذي اختلس عمري، أتوارى.أنزع عنّي ثياب الدور الرئيسي الذي كتبه القدر واستسلمت له بملء إرادتي،أراقب جراحي،أضمدها قدر ما أستطيع،أضبط ملامحي وأخرج من الباب الخلفي للمسرح،يقتحم المعجبون أيامي،كلمة للذكرى في أتوجراف الزمن،وتوقيع مرتعش على صورة لرجل كان يشبهني،ثم أمضي لأنام مع الأمل؛لعل الوقت يمنحني فرصة أخيرة لأن أرتجل حوارًا جديرًا بالخلود،يكسر ملل العرض اليومي المعتاد .

للآن لم أتطهر من ذنوب الماضي،غرتني الأماني،تنفسنا متع الحياة،وجمعنا المتناقضات،انحرفنا وتفوقنا،أدركنا النجاح وتعاطينا الإحباط ،حلمنا أن نعيش في فردوس عظيم واغتالنا كابوس المرحلة،كنا نحلق كالطيور،وهيض جناحنا في أسر الباطشين بنا،ثلاثون عامًا من الركض،في كل مرة أستسلم لمشرط الطبيب أقول لعلها النهاية،يثب الماضي في أضغاث التخدير،أراك هناك،أمي،وطيف أبي في صورة معتقة كوجعي .رتيبة وضحكتها، قريتي النائمة،أعمامي القتلة،وأخوالي الضائعين في النسيان، إسكندرية الخمسينات والستينات،المقاهي والشوارع المُعطرة،مدارسنا القديمة،الكتب التي كنا نسافر في أوراقها،أتذكر كل شيء،فأظن أنه الموت .سقط الجواد يا صديقي... سقط الجواد،وحين أفيق من هذا السجال أرى يد الله الحانية،إنه حتمًا يحبني،يرسل لي فرص التطهر وهي ترتدي ثوب المرض،هو رب الأيتام يا "عمر" ورب المرضى والمستضعفين،الله يكره الجبابرة،لماذا لم تفهم هذا قبل أن تأخذ هذا القرار يا صاحبي؟

تعلمت حين تضيق الروح أن أرسل عيني إلى السماء الفسيحة،أنصت مع تباشير الفجر للكروان،وهو يُسبح لله،وأراقب أزهار شرفتي؛ليزداد يقيني إنه أعظم مما كان خيالي يصوغ ويتصوّر،أقداري بيده،وأنا.. من أنا؟؟

دمعةٌ ذرفتها عين فتاةٍ،كانت تحمل لقب أمي؛فقدت أبي قبل أن أدرك بعقلي البريء معنى الفقد،أيقنت إنني لستُ أعز عليه من أعظم يتيمًا تنفس الهواء.. لن أشكو له ابتلائي،فيقيني إنه من أرسله؛لكن لن أتحمل نيران الشوق تطول بي لأن نتقابل يومًا،أعلم إنني مازلت عند النهر اغتسل،وحين أتمم طهري سأصعد،إنه الحب الذي يغمرني به منذ الأزل .

ما أروع أقداره وعظيم عدله!! في جنح هذا الليل،وفي سيل هذه الأوجاع،وكآبة الوحدة،وسماء أيامي تمطر هذه الانكسارات،أتجرع من قنينة الأمل،لم يتبق سوى ولد واحد،ورغبة للموت في تراب بلادي التي قتلت كل شيء. سيستقيم ميزان العدل،سيتبخر إحساسي بجحود الناس،سأغفر للجميع،وليته يغفر لهم.

## عود على بدء

كنت مراهقًا ولم أكن أعي،وأنا أجعل من كتفي متكئًا لأبي،لم نحن هنا الآن.
وصلنا لبيت الرجل الذي اتصل في ساعة متأخرة من الليل يخبرنا بوفاة رجل لم يكن بيننا من يعرفه سوى أبي،ربما كنتُ صلبًا،لم أتردد حينما دُعيتُ لأن أحمل معهم جثمانه،ووضعه في سيارة،بعد أن ألقى كل الواقفين نظرة طويلة وأخيرة عليه،لفت نظري القصر الغريب الذي بدا واضحًا من خلال الكفن الذي انحسر على مساحة جسد،ربما يتجاوز المتر ببضع سنتيمترات.
أوصانا صاحب الدعوة،أن نتجه جميعًا إلى مقابر العامود،وحدد لنا القبر الذي أوصاه لأن يُدفن فيه،وبحضور النية لعدم جدوى إقامة سرادق مسائي للذين لن يستطيعوا اللحاق بالدفن،وانتبهت لجملة قيلت لحظتها:إن كل من يهتم بالرجل أراه هاهنا الآن.
ربما دفعني الفضول أن أسأل عن المتوفى،لم أجد إجابة واضحة،وعندما حضر اسم»رتيبة» أدركت أن المسألة تخصها وحدها،وأن حضورنا إكرامًا لهذه السيدة التي تتصدر صورتها أهم غرف البيت الكبير.
نفرٌ قليل تحلَّقوا حول القبر،لا أخفي تأثر أبي الذي كانت صحته في منتهى الاعتلال،وصاحب الدعوة كان أكثرنا حزنًا ودمعًا،ورجل آخر تبدو عليه أمارات أسى صادق ومقنع.
تصافح الجميع،وقيلت هذه العبارات الكلاسيكية الخاصة بهذه المناسبات، افترق الجميع في سيارات، ولأن بيتنا في جوار المقابر،ترجلنا أنا

وأبي ومعنا هذا الرجل الذي ظهر عند الدفن في دثار الأسى.. تبادل مع أبي أطراف الحديث،عن الدنيا التي تبتلع العباد، الماضي الذي ذهب ولن يعود. عند مدخل حارة أعرفها،استأذن الرجل واختفى فيها،لم ينتظر أبي أن أسأله. فقال بمجرد ابتعاده عنّا: إنه «سعيد بشير» شقيق أعز أصدقاء الرجل الذي قمنا بدفنه للتو.راح يذكرني به،يوم جاءنا منذ سنوات قليلة خلت ولم ينزل من سيارته كونه كسيحًا.. نعم؛تذكرته،دخل بيتنا طفلاً، عاش مع «رتيبة» مدة، ثم رحل من زمن بعيد،وقبل أن يولد أحدٌ منا تقريبًا.

صعدنا إلى البيت،لم تدهشني كثيرا صحة والدي المتراجعة،لكن لا أدري سر ما رأيته،كنت أشعر أن كل ما قمنا به في صبيحة هذا اليوم كان روتينيًا إلى درجة،فالرجل أولا وأخيرًا ليس قريبًا مباشرًا لنا،لكن بمجرد أن ارتاح أبي في أقرب كرسي،راح في نوبة بكاء مؤثر وطويل.

قمت بعصر جبهتي كثيرًا في صحبة هذه الأوراق المتناثرة،الثقيلة في شجن،والكثيرة في منعطفات ماض هو بالضرورة حاضر بكل تفاصيله،فأزمة هذه الأوراق أنها الماضي الآن،أو الآن الماضي. هنا كنت محتاجًا لأن أدرك بوضوح أن زوجتي بالفعل غاضبة في بيت أبيها،لم تتحمل نقاشًا،ربما لم يكن هناك سبب لإثارته،الصادم والمدهش حقًا نور الصبح الذي ظهر بوضوح من نافذة الغرفة،لم أشعر بالوقت الذي تم استهلاكه في قراءة الرجل،زوجتي لن تعود على المدى المنظور،ومن الضروري أن أقوم كي أخدم نفسي بنفسي،واصطنع كوبًا من القهوة يعيد لي؛ليس الاتزان وحده،ولكن كي أركز مجددًا فيما تبقى من أوراق،فلا ينبغي أن تؤجل قراءتها لوقت لاحق،فربما غدًا لن أستطيع،بل إن الصدق يحتم عليّ الاعتراف أن العودة لهذه الأوراق

مهلك لا محالة،حزينة بشكل لم يكن سهلا تحمّله،ولاسيما أن الحزن هذه الأيام قد صار سمتًا.

لم أراهن على طبيعة الأوراق الأخيرة،هناك أزمة كعادة كل الأوراق المأزومة التي عبرت لنفسي فوق جسر من دموعي وتأثري في هذه الأمسية.

"هل جربت الموت من قبل"؟ تصدَّرت هذه العبارة أوراقه الأخيرة،أدهشني السؤال.. رشفت رشفة من فنجان قهوتي المُر كالأيام،ورحت من جديد في نداهة الرجل وغوايته.

لم تعد «كلوديا»،أخبار الانتكاسات التي تحدث لي،لم تشجعها لأن تعود،تراجعت معدلات الاتصال،ربما أرادت أن تتركني على حريتي،أو تعاطفت مع رغبتي في الموت هنا،لا أريد اتهامها بالتخلي،ففي السنوات الأخيرة كانت التفاصيل أكثر قتامًا،قتل الروتين كل طموح؛لأن ننجز ما نتمناه،كنت أستطيع التحلي بالصبر كي ننهي كل شيء،لكن بدت لي الأمور أكبر بكثير من مجرد روتين. تفاصيل دفعت بتفكيري في أكثر من اتجاه،معظمها يصب في صالح الشيطان.

لم نصادف موظفًا ينتهج أقصر الطرق في التعامل،تحالفت كل آفات الروتين مع منظومة متعجرفة صدمت كل قناعاتي،لم أجد وصفًا للأمر.. فساد،إهمال،عدم اكتراث،لم أجد الناس في دائرة الزمن، مصر خارج التاريخ ولا أدري السبب.ضجيج بلا معنى،وواقع مرتبك ومضبب،تراجع مؤسف لكل القيم، أمور جعلتني أضع جبلاً من الهموم التي انعكست بدورها على ملامح علي الذي ضرب بكل شيء عرض الحائط كي يبقى معي،ما كنت لأتخلى عن كوني أبًا رحيمًا، ولم أشأ مطلقًا أن أضعه على المحك، فلن يجني

أي فائدة من طموحات أبيه المُجهَضة،الطقس كله لن يعوضه أي معنى من المعاني التي تركها كي يهبط إلى مصر،رغم أنه كان مستعدًا أن يتنازل لصالحي عن بعض الفروق التي هي واقعية في الأساس، لكن المأساة ظلت للنهاية أكبر منه،فما كان مني سوى أن شجعته أن يتخذ القرار الصعب.قرار كنت أتمناه،كي يريح ضميره من جهتي، والأهم أن يستأنف حياته بعيدًا عن هذه المغامرة التي ثبت فشلها بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

"علي".. لا تتخيل يا بني أن الحياة هنا قد أخذني حيالها التفاؤل الغير مبرر،كنتُ على يقين لا يهتز أن الحياة هنا أكبر منّا،نحن الذين تم صبغتنا بثقافة أخرى،لا تؤمن بهذه الأشياء التي أصبح التافه منها يضغطنا حد الألم والدهشة،ليس من العقل أن تكرم أباك على حساب نفسك،الأب ملزم دائمًا بالتضحية من أجل أبناءه،أنا نفسي، ولو أن لي جذورًا هنا،لكن ما حدث مؤخرًا وأنت تعرف،قد نال من طموحي المتطرف،وصبري القديم.. لا تُدهش،فكل ما أمتلكه هنا قد تركته لأهلي،ربما هم أشد حاجة منك،وكل ما أمتلكه هناك،ملكٌ خاص لك،ولوالدتك ما عاشت،ولسوف ترسل لي السفارة راتب تقاعدي الذي إن تحوَّل إلى جنيهات هذه البلد فلسوف أعيش مستورًا للنهاية. وسأحتفظ ببعض المال تحسبًا لأي عارض ينتظرني في قادم الأيام،لذا أقولها بكل الحب:أنت في حل من أي شيء،غادر هذه الأرض،بحسبنا ما عانيناه،فقدنا لأخيك،مرض أبيك وعجزه، تفتت الطموح،ضيق الأفق الذي صادفناه،وتفاصيل أخرى ربما لا يعنيك سبر غورها لأنها طاعنة في عصب كل من حملوا جنسية هذه البلد.. ارحل فأمك الآن أكثر احتياجًا لك مني.

لم أشأ أن تتقابل عينانا،خشيت أن يلمح ضعفي،تحكمت في نبرات صوتي قدر ما أستطيع،كي لا تنتابني عَبرة تمهد لبكاء طويل،فيفهم إنني أستجديه لأن يبقى؛يبقى حتى يواري جسدي في التراب،ومن ثم يرجل للأبد.كنت أتمناه حاضرًا كي يضعني على عتبة الباب الملكي للعبور إلى الله.وجدته يبكي خلسة،كان عاطفيًا في لحظة كنت أشد ما في الكون افتقارًا للعطف.. تجهَّز للرحيل،جمع ما يخصه،وعدني بالاتصال والزيارة،ضغطني عناقه،خرج مسرعًا،تاركًا حسراتي معي،أتلمس قلبي،هل مازال في الضلوع.ووجدته وقد انخلع مني كاملاً،في لحظة تشبه تعيسًا خرج للتو من صالة قمار،وكان الأمل يحدوه لأن يربح في ليلة تحتاج الربح.

زارني»مبارك حسين»جمعنا لقاء شيوخ مطوَّل،عاتبني على ما اعتبره تنازلاً هشًّا لابني كي يرحل،أو لربما كان جديرًا بالغلام أن يتمسك بي أكثر من هذا. لا فائدة من بقائه،بل سيأتي قادم الأيام على نفسه بمذاق بائس،يصورني له،ذاك الأب الذي يتفنن في تعذيب وحيده.

كانت الظروف كلها أكبر مني،وإن كنت أحسبني ذلك المثقف القديم الذي لم ينفصل يومًا عن فكرة التأصيل لكل ما يجري حوله،وصدقًا كنت مفرط العجز لأن أقوم بتوصيف ما يحدث،لم أفهم،أو رحت في نوبة فهم،ولم أشأ أن أصدق أي معنى وصلت إليه،لم أكن أصدق أن هذه بلادي التي أعرفها حرصت لأن استطلع الآخرين،لربما قد فهمت الأمور بطريق الخطأ، التقيت بالشيوعيين القدامى، لم أشعر أن الأمور قد اختلفت من قريب أو بعيد،وأزمتي العتيدة التي تتجه لتأصيل المشروع-أي مشروع- لم تسفر يقينًا عن شيء،مازالوا يتحدثون بلهجة ستينية لم تبرح ما ألفناه في شبابنا المبكر

الفكرة الأبرز كانت في هذه الوشائج المرتبكة مع السماء، ولم أكن أعرف جدوى الثقافة والأجواء كلها مسلسل عبثي لا رابط ولا مرجعي يستطيع ضبط إيقاعه.

لا يوجد كبير أو رمز،كانت هذه الحقيقة متى لمستها أشعر بغصة،ورغم حرصي على اقتناء الكتب،وجدت أنه من العبث بمكان أن أقرأ ما تأتي به مطابع هذه الأيام،وقراءة جرائد الصباح بدت لي مغامرة جالبة لكل آيات التقزز،ولمن تسدد أصابع الاتهام في زمن فاقد للحد الأدنى من المعيارية.

ربما كنت مستعدًا لأن أخلخل معايير نظرتي لكل شيء، لكن ما رأيته ولمسته كان ركيكًا جدًا،الرداءة عنوان فسيح لكل ما أحاط بي من تفاصيل.

كان توحدي قد أنتج أسوء ما عرفته،ولم أكن أعرف كدأب هذا المواطن الأثيني الذي حمل قنديلاً في منتصف النهار،وحين اندهش الناس،وسألوه قال:أبحث عن الحقيقة.والحقيقة إنه بالضرورة لا وجود لأي حقيقة،لأن المشروع الحلم قد تم اغتياله،وقضية الإنسان في حظيرة الضاد قد باتت تراثًا من الماضي.

كان كل شيء مجانياً،الفن،الأدب،السياسة،الثقافة،كل شيء في غياب الحلم يجعل منا جزرًا معزولة،كنا في أجواء الحرب أكثر انتماءًا،لدينا قضيتنا،ندشن كل ما لدينا من طاقات ونعرف لأي اتجاه نتقدم.كنت مستاءًا عندما قال لي»عمر بشير»منذ سنوات:إن السلام الساداتي جعل من نصر أكتوبر نصرًا بمذاق ٥ يونيو.. لم أكن متضامنًا بالكلية مع هذا الوصف،لكن بدت الحقيقة في كبدها حسبما قال من عاش هنا هذه التفاصيل.

المتعطلون في جل المقاهي،التفسخ والتشرذم،التباين الكافر في مستويات الدخول والميزات، صفحات الحوادث التي كنت أطالعها في البدايات كانت تكشف لي جرائم نوعية وغريبة،تنذر بأن الفقر قنبلة الأيام القادمة،وأن الرحمة قد نُزعت انتزاعًا من قلوب الناس،وأن الأخلاق لم تتراجع وحسب،بل إن الفطرة التي خلقها الله خيرةً بطبيعتها،قد أصابتها انتكاسة فارقة وغير مبررة،ولا يُعرف يقينا سببها الواضح.حينها كنت أؤسس كراهيتي للنهار الذي تضغطني تفاصيله.

في أمسية سمعت قصة غريبة،عن شاب ذهب لزيارة أبيه،دق الجرس وما من مجيب،هبط للسيارة التي كانت تقف أمام عمارة قيل أن بها ما يقترب من المئة شقة،مسكونة كلها،واستل نسخة من المفتاح،وعاد مجددًا ليفتح على أبيه الذي إما لم يسمع الجرس،أو متعب ولا يقدر لأن يقوم.انفتح الباب أخيرًا،لم يكن هناك ما ينذر بشيء،بل صمت كامل،وهدوء مميت،وصل لغرفة نوم أبيه،ولم يجده،بل وجد هيكلا عظميًا مسجى على فراش،وعليه ملابس متآكلة.

كل من سمع معي هذه القصة كان يفسرها على ضوء الأرحام الممزقة،والدنيا القاسية التي أذهلت الابن عن أبيه،بينما كنت ذاهبًا في معنى آخر لا يقل ضراوة عن كل ما سمعته حينها.رحت في ذهول حتى سألني واحدٌ من زواري ماذا بك؟

ربما لم أقل ما يدحض تفسيراتهم،لكن ذهبت للسؤال الذي سبب لهم ضحكا يقترب من البكاء..أين ذهبت حاسة الشم لسكان هذا العقار، لا غضاضة أن نصادف ولدًا جاحدًا، لكن ألم يشتم السكان رائحة الرجل وهو يستحيل

إلى جيفة، والأيام تتطاول عليه ميتًا؟!!
إن رتيبة زوجة التاجر البسيط، لم تكن نموذجًا مباغتًا،رغم أن موقفها بتخريج الآن قد يبدو غريبًا،بل من السهل أن توصف هذه الأنماط بالجهل الصراح. حرمها الله نعمة الإنجاب،وزوجها كعادة الناس يسعى للخلود والذكر،وهذا لن يأتي إلا بذرية،كان شديد الحياء،لم يطلعها رغبته،ولم يشأ أن يجرحها،لكنها بذكاء الأنثى تعرف ما يعتمل في نفسه،فسعت هي بنفسها لأن تزوجه،وقد كان، وهو بدوره حافظ عليها كزوجة وصديقة وناصحة وكاتمة لأسراره حتى لقي ربه.
لم يكن سهلاً أن تفوح رائحة طعام مميز،وتجد من صنعه حريصًا لأن يأكله منفردًا،بل كنا نسميها الأطباق الطائرة،التي تحمل ما لذ وطاب كي يستمتع الجميع.ولا أن تجد سرادقًا في جوار حفل،أو صغيرًا يتطاول على كبير.أو تعاملاً فاقدًا للحد الأدنى من الرحمة والإنسانية.كان اعتلال نظري يصور لي في سقف غرفتي سؤالا يظهر في صورة ضباب أسود كثيف.. ماذا حدث للناس؟
في صبيحة يوم غائم،كان ضروريًا أن ألبي دعوة صديق قديم،تحسست لحيتي،وجدتها تحتاج للتنعيم،منذ بواكير عمري وأنا مولع باللحية الحليقة،والحذاء اللامع،احتفظت بالأولى،وتنازلت كرهًا على الثانية،فلم أعد أمتلك قدمًا من أجل حذاء.وصلت للبيت،وكان الرجل أشد كرمًا مما تخيلت،استيقظ مبكرًا من أجلي،وأعد سمكًا يعلم أني أحبه.سأل عن كل الراحلين،كنت أسمعه ولا أسمعه في آن،بدا الاستسلام للوضع ولم أجده محللاً لما يحدث،تمنيت أن أجد عنده ما يريح تساؤلاتي،وهيهات أن أصل.

كان المشهد بعد خروجي من عنده صعبًا،كل شيء يركض ركض الوحوش في البرية،ولا أدري ماذا حدث؟علامات استفهام تأتي مضفرة مع علامات تعجب تقتلني تقريبًا.كل الوجوه عائدة من حرب،الجميع مهزوم،الصحة استثناء،المرض عرض عام،شباب وبنات جميعهم تحت الحصار.وجه وحيد لأحد يبتسم،ليلة قدر لا تطول سوى الخاصة من عباد الله."فقر بن يوسف الثقفي"خرج على الناس شاهرًا سيفه،ومعاوية ويزيد يمارسان متعة المشاهدة للموت الذي يتناسل يوميًا.

رفعت زجاج السيارة،وطلبت في إلحاح العودة للبيت،ومصيبتي التي تجثم على صدري أنني رأيت هذه الوجوه منذ أربعين عامًا ولم تكن كذلك أبدًا. كنت أحتاج النظر للبحر،فمن القاهرة لهنا افتقدته فعلا،لا يوجد أروع من النظر إليه سوى أن ينظر المؤمن إلى موقعه في الجنة.لم أفهم لماذا شعرت أنها المرة الأخيرة،لكن لم تأخذني غصة السؤال عن المصير،تعطلت حساباتي كلها،ولا أبالي.

مرت الدقائق سريعة،رجعت دنيويًا يريد العشاء،أكلت بشهية مفتوحة،لكن لم أشعر بطعم أي شيء،كيف صارت الأمور لما صارت إليه،من يدير هذه الملحمة الخبيثة؟؟يسحق كل شيء حتى الحلم.كان أكبر أبناء"مبارك"بصحبتي،لم أراهن أن يدعوني لصلاة الفجر في أبي العباس،وهو ابن الشيوعي العتيد الذي ما ركع ركعة واحدة لله.

تحركنا صوب المسجد،ولا أدري كيف حضرني طيف»رتيبة»حال قيامها في الفجر لتتوضأ،في آخر عهدها كانت تستند على حائط كي تصل موقع الوضوء، كنت أسأل نفسي عن طعم لم أتذوقه عمري، ولم أسعَ إلى تذوقه

ربما، طعم الإيمان.مذاق أن يكون لك علاقة برب تقوم للقاؤه، كنت أصلي من أجلها للأسف،لكن ظلت الصورة ماثلة لعيني،وبداخلي رغبة لا تفتر لإعادة اكتشاف المذاق المفقود. حملني الشاب الطيب بمعاونة الطيبين الذي مروا بجوارنا إلى حيث مكان الوضوء، ابتسمت عندما سألني طفل عن وضوئي الناقص بالضرورة كوني بلا قدمين، ربما استاء الشاب الطيب وتألم،لكنني مؤمن أن أسئلة الأطفال لابد لها من إجابة.. قلت:اعتدت اختصار كل شيء، هكذا كان.

جلست مستندًا لعامود من الرخام يحفظ توازني،وذهبت في صلاة السُنن حتى قامت الجماعة،كان الإمام رائع الصوت حقًا،لم أعد قويًا عند سماع القرآن،قاومت البكاء وفشلت،ولاسيما أن الشيخ قد أناب عني في إجابة أكثر حسمًا لذاك الطفل البريء.. « قل كلٌ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا».

انتظرت فترة حتى يبدو المسجد خاليًا،حملني مجددًا للسيارة،ونيتي أن أعود للبيت.تلكأت مجددًا عند البحر،وشكوت لربي طول السفر.

لم يعد مبارك في شيخوخته متعنتًا كما كان في الأيام الخوالي،فهم معي أن هناك قوة لا تريد لأن تقوم هذه البلد،نحن خارج الزمن والتاريخ،نناضل أنفسنا، ونذهل عن التحديات التي تواجهنا،على حدودنا العدو،وترى من يتحدث عن السلام والمؤاخاة،أمَّة ساقطة،ذاكرتها خشنة،تتذكر الانتقام،وتتناسى عمدًا أنها مسئولة أمام العالم كي تقدم تصورًا مقبولاً للإنسان والحضارة.لا سياسة،العشوائية والارتجال،لا برامج،ولا قضية،ولا حلم،شخصنة وفردية،تضليل وأكاذيب،الكل باطل، والفقراء يدفعون الثمن

باهظًا لطموحات هشة،وأحلام متناهية الرداءة.ولا عزاء للمؤمنين بالأوطان
الأيام تمر،وما بين الموت وانتظاره في هذا الطقس،جاءت الفحوصات
إيجابية،إنه السرطان،لم أجزع،أو ارتعب،لكل موت سبب،جميل
جدًا،فالشوق للقاء الأحبة قد صار مُلحًا.. لم أعد أحمل أي ملمح من محبة
لهذا العالم،وما كان للغريب أن يطمع في شيء،ومن الرحمة أن السماء بلا
شرطي مرور واحد ينظم حركة السير متى أردت الصعود.
بالأمس كنت أسأل»مبارك»ماذا يضير البراءة إن منحني طفل بعضًا من
ابتسامة؟ أو صادفت رجلاً يرتدي ثيابًا مرقعة،يدعو الله لأن يتغمدني
برحمته؟من يعيد الطفولة رغم كل ما فيها من بؤس،ويأخذ كل شيء؟
كنت أتعجب من هؤلاء الممسكين بتلابيب الحياة،وهم في حقيقتهم قطعة
سكر متناهية الضآلة،تذوب في فنجان من وجع،يتصاعد بخاره السرابي
الكريه،الموت ذلك النوم الهادئ،وحسب الناس أن يرتاحوا.في الليلة
الماضية رأيت ما صنعته جلسات العلاج الكيماوي،ضحكت،الأقدار ترسم
اللوحة.
كنت مشفقًا على صديقي الأخير والوحيد من موتي،الذي لم أعد أهتم كثيرًا
حال أتى.جادلني كوني مستسلمًا،ولكني لم أكن كذلك صدقًا، بل محتاجًا لأن
أغادر،بلا هدف،لا جدوى لأن تختلس من الكون أنفاسًا إضافية،بدون من
تحبهم،الحياة عبث لا معنى له،الموت رائع يا صاحبي،أنا أعرفه،جربته من
قبل صدقني.التراب رحيم،الدود الذي ينخر أجسادنا أكثر أدبًا من البشر،لا
يأكلنا أحياءً، ينتظر حتى نبلى،ومن ثم يجهز علينا.. أرأيت؟
كان مبارك وربما راح للاعتقاد بجنوني أو هذياني على الأقل،بدت عليه كل
أمارات الحيرة والإشفاق،كان براجماتيا كالعادة،لا يريد أن يُحرم

من شيء،يريدني معه،بغض النظر عما أعانيه من آلام شاملة،ضياع الطموح،وتشرذم الأسرة،والوطن المغبون،ظل ينظر لي طويلاً،يصطنع أحاديث كثيرة من هنا وهناك،من الآن ومن الماضي البعيد.

سألني كيف تقضي الأيام؟ قلت:سأكتب كل ما رأيته وعرفته،وعنكم،سأعريكم جميعًا ونفسي، سأسابق الزمن كي أكتب،دون أن أراهن من سيهتم لأن يقرأ حرفًا مما كتبت.تحدي الأيام القادمة أن أكتب،وإذا مت،فلتدع هذه الأوراق في بيت رتيبة،هؤلاء الناس أمناء حقًا،احتفظوا بكل شيء واحترموا غيابي. ولا تحزن أو تبتئس متى صادفت كلامًا عنك لا يرضيك،اغفر لي فقط، فلن يجدي أن تصحح عوار نفسك التي أعرفها.إذا ما صادفت رأيًا سلبيًا فيك.

ظل ينظر لساعته،وقبل أن يهم بالانصراف وجدته يقول:إذا كنت فعلاً قد مُت من قبل،فلتقل كلمة عن هذه التجربة لربما أخذت حذري. كانت ملامحه لا تعطي أي انطباع واضح،جاد،أو يسخر مني، لكنه يقينًا لا يعرف إنني- ربما- مت حقًا من قبل؛لذابعد طول صمت وتأمل وشرود،كنت أجيبه وكأنني أخاطب أحدًا لا أراه،عاد بدوره للجلوس كي يسمع،وليته ما سمع.

قلت كما الهاذي:

لن تهتم للموت إلا إذا قابلته،مسكين،كيف ستستقبل هذه اللحظات؟ربما سيصيبك العجز والروح آخذة طريقها للصعود، لتحل ضيفًا على الله،سأقص؛لأنك صديقي كيف هو الموت؟ حيرة وغياب، حضور مؤلم للماضي،تلخيص عجيب،خيالات،نداهة،أصوات،تهبط ملائكة الله، ترى الكون رماديًا، والناس بالبعد الثالث، روائح غريبة، وجوه قديمة،ت تزاحم في

المشهد أطفال، تطلق أصوات أوبرالية،أغان مبهمة،عصافير من ثلج،تلتقط حبوب الحياة من أطرافنا،شيئًا فشيئًا،تنمو أجنحة، وتطير الروح إلى الأعلى. هكذا الموت لو تدري

ليت شعري، فلقد حسبت مبارك قد مات، لم ينطق وربما لم أشعر بإيقاع أنفاسه نام على الراجح،أو سمعني وضاع مني،الغريب أن شعرت إنني للتو قد عدت من بعيد، من بعيد جدًا،لكنه قام وألقى عليَّ لومًا جديدًا لاستسلامي وتحفزت مجددًا لجلسة كيماوي جديدة في الغد،لربما كانت الأخيرة.

لم أندم ندمًا في حياتي مثلما ندمت على فوات فرصة لقاء هذا الرجل،الذي لم يراهن على القادم لقراءته، ولم أستطع إحصاء فناجين القهوة، وأعقاب السجائر، ومرات البكاء، وعوارض الدهشة،فالماضي الذي اتفق إنه جميل لم يكن جميلاً بالكلية، فمعاناة الأوراق تثبت هذا، وإن كان ما نعيشه حيال ما نقرأه يظل الأسوأ، أي وجع وانهيار يستلب قريحة إنسان، يرى الموت في هذه الصورة البسيطة، والحياة أكثر تعقيدًا، يسفه الأحياء، ويغبط الأموات،لكنه ظل دنيويًا ما استطاع للدنيا سبيلا،يتحسس حياته بروح الباحث عن الحقيقة،ويؤصل ما صادفه من بشر من وحي خبرة ما كانت لتخطئ تفسيرات النفس البشرية وتعقيداتها.ربما يدفعني دفعا الآن أن ألتمس طريقة أستعيد بها زوجتي الغضبى،أو أن أذهب للمقابر أهديها دعاءًا تستحقه.أو أن أقوم مجددًا من أجل كوب قهوة يبلور كل ما صادفته في هذه الليلة.لكن كنت بالفعل محتاجًا لأن أطل من شرفة البيت كي أشاركه الامتعاض من هذا الوطن المغبون حسب وصفه.. أشعلت سيجارتي وشردت،لكن استرقني ضجيج بدأ صوته يقترب مني،أمواج

من البشر تقترب من البيت،كي تخرج إلى الشارع الكبير،ربما أخذني الفضول،لم أكن أركز في شيء، نزلت وتقاطرت مع الجموع،ومنعني حيائي في البداية أن أهتف معهم، كل ما التقطته أذني من هذا الضجيج.. حديث غاضب، وصراخ يتحدث عن العيش والحرية، وإشارة لم أفهمها للنظام وسقوطه.لحظات وصرخت مثلهم ناسيًا الخجل، وزوجتي الغاضبة.